جـامعة عبد الرحمـان ميـرة- بجاية
كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة و الأدب العربي

عنوان المذكرة :

الثنائيات المتضادة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للروائي الطيب صالح

مذكرة مقدمة لاستكمال شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي
تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

إعـداد الطّالبين:

سفيان زبيشة
كنزة أوحداد

إشراف الأستـاذ:

عمر قلايلية

السنة الجامعية: 2019/2018

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

إن علاقة **الأنا** العربية **بالآخر** الغربي من بين أهم القضايا التي حظيت باهتمام العديد من الأدباء والروائيين العرب، نتيجة لما أثارته هذه القضية من جدل واسع في الساحة الأدبية تبناها الروائيون من زوايا نظر مختلفة، حيث نجد أن هناك من رصد هذه العلاقة انطلاقا من جانبها الإيجابي المتفائل، في حين أن هناك من ينظر إليها بنظرة مغايرة لاعتبارها علاقة صدام وتنافر، وعلى هذا الأساس أصبحت هذه العلاقة من بين أهم المواضيع التي شغلت بالهم فتناولوها في متونهم الروائية معبرين فيها عن هذه الثنائية الضدية **(الأنا والآخر)**، وعن طبيعة الصراع الذي جمع بينهما.

ومن بين أهم الروايات العربية التي تناولت طبيعة العلاقة الحضارية بين الشرق **(الأنا)** والغرب **(الآخر)**، رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي **الطيب صالح**، اخترناها كنموذج لموضوع بحثنا الموسوم "بالثنائيات المتضادة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال"، بهدف الإجابة عن بعض الإشكاليات المتعلقة بهذا الموضوع وتتمثل في:

ـ كيف تجسدت الثنائيات الضدية التي وظفها **الطيب صالح** داخل روايته؟؛ وكيف مثل لنا كل من الشرق والغرب انطلاقا من تلك الثنائيات الضدية؟؛ وهل تمكن **الطيب صالح** من كشف حقيقة هذه العلاقة الحضارية من خلال روايته؟

ومن بين أهم الأسباب التي دفعتنا لاختيار هذا الموضوع، هو إعجابنا الكبير برواية "موسم الهجرة إلى الشمال"، نتيجة لما نالته هذه الرواية من شهرة واسعة جعلتها تتخطى حدودها الوطنية لتعانق العالمية؛ حيث أنها صنفت من بين أفضل مئة رواية في العالم، إضافة إلى عبقرية صاحبها **الطيب صالح** الذي طرحها لنا بشكل جديد ومشوق مخالف تماما لما كانت عليه الروايات العربية السابقة.

ولكي نلم بكل جوانب الموضوع فإننا ارتأينا تقسيمه إلى مدخل تحدثنا فيه عن التعريف اللغوي والاصطلاحي لكل من **الأنا والآخر** ثم رصدنا فيه أهم الروايات العربية التي تناولت علاقة **الأنا بالآخر** وموقفها من طبيعة هذه العلاقة؛ يليه مباشرة الفصل الأول المعنون بـ: تعدد رؤى الأنا للآخر في الرواية العربية، الذي تحدثنا فيه عن أهم الرؤى التي تبنتها **الأنا العربية** في نظرتها **للآخر الغربي** وهي: الرؤية الانبهارية، الحضارية، السياسية، والعدوانية عبر نماذج روائية مختلفة؛ ليأتي بعده الفصل الثاني (التطبيقي) بعنوان: صراع الأنا والآخر في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، الذي رصدنا فيه أهم الثنائيات الضدية في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" **للطيب صالح**، ومن أبرزها "ثنائية الشمال والجنوب"، "العرب (الحقيقة) والغرب (الوهم)"، "الرجولة والأنوثة"، "العلم والجهل"، الماضي والحاضر"، "المركز (المتحول) والهامش (الثابت)"؛ التي ترصد لنا العلاقة الضدية بين الشمال الجنوب. ليلي هذين الفصلين ملحق قدمنا فيه ملخص عام للرواية ونبذة عن حياة الروائي، ثم نختتم دراستنا بمجموعة من النتائج التي توصلنا إليها خلال بحثنا هذا معتمدين فيه على مجموعة من المصادر والمراجع؛ وارتأينا في دراستنا هذه إلى تطبيق المنهج الوصفي التحليلي.

ونحن في صدد دراستنا هذه اعترضتنا بعض الصعوبات التي عرقلت وتيرة سير بحثنا كعدم توفر بعض المراجع، إضافة لضيق الوقت بسبب الاضرابات المتكررة.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نشكر الله عز وجل الذي وفقنا لهذا، كما نشكر أستاذنا الفاضل الذي أشرف علينا في هذا البحث، ولم يبخل علينا بتوجيهاته ونصائحه كما نشكر كل من ساعدنا من قريب أو من بعيد ولو بكلمة طيبة لإتمام هذا العمل المتواضع.

في بجاية يوم 2019/06/16م الموافق، لـ 12 شوال 1440هـ

مدخل:

- مفهوم الأنا
- لغة
- اصطلاحا
- مفهوم الآخر
- لغة
- اصطلاحا
- أهم مواقف الأنا للآخر

مما لا شك فيه أنَّ الكتابة الروائية العربية وطرحها لموضوع **الأنا**، يصحبها بالضرورة موضوع **الآخر** كمقابل أو نقيض موضوعي لهذا الأخير، بالرغم من التباعد اللغوي والاصطلاحي للمفهومين نجد بأنهما يجسدان موقفا موحدا في اللقاء الحضاري بين الشرق والغرب الذي ينبني بدوره على نمطين أساسين في الصراع ألا وهما موقف القبول والرفض.

1-مفهوم الأنا:

من أجل الوقوف على مفهوم الأنا لغة واصطلاحا تطلب الأمر منا العودة إلى مختلف القواميس والمعاجم العربية التي تحمل في ثناياها ذُخْرًا وكمّا من المعلومات التي يحتاجها الباحث أثناء تقصيه لهاته المعارف.

أ) -الأنا لغة:

ونحن نتصفح قواميس اللغة العربية بحثا عن مادة الأنا وجدنا في كتاب العين أن كلمة «أنا فيها لغتان، حذف الألِفِ وإثباتُه وأحْسنُ ذلك أَنْ تُثْبِتَهَا في الوقوفِ، وإذا مضيت عليها قلت: أنّ فعلت وإذا وقفتَ قلتَ: أَنَهُ، وإن شئتَ: أنا وحذفَها أَحْسَنُ، وقوله تعالى: لكنَّا هو الله ربيَّ (الكهف:38) معناه: لكنّ أنا فحُذفتِ الهمزةُ وحذفت (إحدى نوني) لكنّ فالْتَقَتْ نونان فأدغمتها في صاحبتها». [1]

وفي المنجد في اللغة والأدب والعلوم نجد «أنا: ضمير رفع منفصل للمتكلم والمتكلمة والأنانة قولك أنا». [2]

---

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، س2003، ج1، ص94.

[2]- لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19، د.س، ص19.

كما وجدنا كذلك ونحن نبحث في تاج العروس أن تعريف **الأنا** ورد على النحو التالي: (أَنْ المَفْتُوحَةُ) الخَفِيفَةُ، مِنْ نَوَاصِبِ الفِعْلِ المُسْتَقْبَل مَبْنِيّ عَلَى السكون، (تَكُونُ اسْمًا وحَرْفًا والاسْمُ نَوْعَانِ: ضَمِيرُ مُتَكَلّمٍ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ) إِذَا مَضَى عَلَيهَا وَلَمْ يَقِفْ: (أَنْ فَعَلْتُ) ذَلِكَ بِسُكُونِ النُّونِ، والأَكْثَرُونَ مِنَ العَرَبِ (عَلَى فَتْحِهَا وَصْلًا) يَقُولُونَ: أَنَ فَعَلْتُ ذَلِكَ، (و) أَجْوَدُ اللُّغَاتِ (الإِتْيَان بالأَلِفِ وَقْفًا)، ومِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ الأَلِفَ فِي الوَصْلِ أَيْضًا، يَقُولُونَ أَنَا فَعَلْتُ ذَلِكَ، وَهِيَ لُغَةٌ رَدِيئَةٌ». [1]

ووجدنا أيضا: «وفي الصّحاح: وهُوَ اسْمٌ للمُتَكَلّمِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا بُنِيَ عَلَى الفَتْحِ فَرْقًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ التِي هِيَ حَرْفٌ نَاصِبٌ لِلْفِعْلِ والأَلِفْ الأَخِيرَةُ إِنَّمَا هِيَ لِبَيَان الحَرَكَةِ فِي الوَقْفِ». [2]

ورد كذلك في قاموس المحيط: «(أَنْ) المَفْتُوحَةَ تَكُونُ اسْمًا وحَرْفًا، والاسْمُ نَوْعَانِ ضَمِيرَ مُتَكَلّمٍ في قَولِ بَعْضِهِمْ أَنْ فَعَلْتُ بسكوِن النونِ والأَكْثَرُونَ على فَتْحِهَا وَصْلًا والإِنْسانِ بالأَلِفِ وَقْفًا وَضَمِيرُ مُخَاطَبٍ في قَوْلِكَ أَنْتَ أَنْتِ أَنْتُمَا». [3]

ب) _ الأنا اصطلاحا:

عند البحث عن المفهوم الاصطلاحي **للأنا** نجد صعوبة كبيرة في تحديده، لأنه مصطلح متشعب ودقيق. «فالأنا مفهوم مراوغ يستعصي على التعريف والحد الاصطلاحي، لأنه يدخل في مشاركة كبيرة في أغلب فروع العلوم الإنسانية، فالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلوم

---

[1]- محمد مرتضى الحسين الزبيدي، تاج العروس، تح علي هلالي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، ج34، س2001، ص208.

[2]- المرجع نفسه، ص208.

[3]- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، ج4، س1980، ص196.

العربية العلوم الإنسانية...».[1] فباختلاف هذه العلوم نجد أن مفهوم **الأنا** يستعصي على الباحث تحديد مفهوم واحد له، ففي الفلسفة مثلا نجد بأن مفهوم **الأنا** يعكس رؤية الذات ومعرفتها للأشياء. وانطلاقا من هذا المنظور نجد أن الفيلسوف **رونيه ديكارت** شكك في كل شيء موجود في الكون، حتى بلغ به المقام في الشك في ذاتيته ما يبدو جليا في «مقولته المشهورة "أنا أفكر إذن أنا موجود" ومن هنا يظهر أن وجود **الأنا** سابق ومستقل عن وجود العالم وعن أي وجود آخر». [2] ومن خلال كل هذا يمكننا أن نكتشف بأن أي وجود غير **(الأنا)** يشكل **(آخر)** بالنسبة له، وبهذا تكون هناك علاقة تغاير بين **الأنا** و**الآخر**.

وفي علم النفس ارتبط مفهوم **الأنا** بالشخصية وما يعترضها من أمراض عقلية وعصبية سواءً في حالتها السوية أو في حالة المرض، وهو الشيء الذي ذهب إليه **فرويد** في كتابه "الأنا والهو" الذي قسم فيه الجهاز النفسي للإنسان إلى ثلاثة أقسام جوهرية وهي« "**الأنا**" و"**الهو**" و"**الأنا الأعلى**"».[3] فقد ربط **فرويد الأنا** بجهاز الإدراك الحسي الذي يشرف على الحركة الإرادية، ويقوم بحفظ الذات من خلال سيطرته على الرغبات الغريزية التي تنبعث من "**الهو**" فيسمح بإشباع ما يمكن إشباعه من الرغبات التي تتماشى مع الواقع ويرفض ويكبت غرائز ورغبات أخرى التي تتنافى مع روح الواقع، «وإذا حاولنا أن نتصور ذلك مرسوما لقلنا إن الأنا لا يحيط بجميع الهو، ولكنه يحيط فقط بالقدر الذي يسمح بتكوين جهاز الإدراك على سطحه».[4]

---

[1]- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي ابن فارض انموذجا، دار الحوار، سوريا، ط2، س2009، ص189.

[2]- محمد عبد الجابر، مفهوم الأنا والآخر، www.aljabriabed.net/maj11-moiautre.htm.

[3]- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، ص192.

[4]- سيقموند فرويد، الأنا والهو، تر محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، ط4، س1982، ص41.

2_ مفهوم الآخر:

إن الحديث عن مفهوم الآخر لغة واصطلاحا استدعى الأمر منا ضرورة الوقوف عند بعض المعاجم التي مهدت لنا طريقا ينير عقل الباحث بزاد معرفي واسع قصد الإلمام بحيثيات وجوانب ذلك المفهوم.

أ) الآخر لغة:

ورد في لسان العرب «الآخر: في أسماء الله تعالى: الآخِرُ والمُؤَخِرُ فالأَخِيرُ هو الباقي بعد فناء خلقهِ كله ناطقه وصامته، والمُؤَخِر هو الذي يُؤَخِرُ الأشياء فَيَضَعُهَا في مواضعِها. وهو ضدّ المُتَقَدِّمِ والأُخُرُ ضِدَ القُدُمِ».[1] فالآخر هنا من المنظور الديني اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، والآخر بمعنى لا آخر بعده ولا أول قبله فهو الواحد الأحد لا شريك له.

وورد أيضا أن الأَخَرُ «بمعنى غَيْر كقولك رجُلٌ آخرُ وثوب آخرُ وأصله أَفْعَلُ من التَّأَخُر، فلما اجتمعت همزتان في حرف واحد اسْتُثْقِلَتَا فأبدلت الثانية ألفًا لسكونها وانفتاح الأولى قبلها». [2] فالآخر هنا يحيل إلى الأمر المخالف أو النقيض للشيء الذي وجد عليه الأول.

وفي كتاب العين الآخر: «أخر: تقول هذا آخرُ. وهذه أُخْرَى والآخِرُ والآخِرَة: نقيض المتقدّم والمُتَقَدِّمَةُ، ومُقَدِّمُ الشَّيْءِ ومُؤَخِّرُهُ وآخِرَةُ الرجلِ وقادِمتُه، ومُقَدِّمُ العَيْنِ ومُؤْخِرُهَا، في العين خاصَّة بالتّخفيف. وجاء فلانٌ أَخِيرًا، أي بِآَخَرَةٍ، وبِعْتُهُ الشَّيْءَ بِآَخْرَةٍ أي بِتَأْخِير، وفَعَلَ الله بآخِرِ، أي بالأَبْعَد، والآخِرُ. الغائبُ والأُخُرُ نقيض القُدُم. تقول مَضَى قُدُمًا، وتَأَخَرَ أُخُراً، ولَقَيْتُه أُخْرَيًّا أي أخِريًّا، ويقال الأَخِيرُ: الأَبْعَدُ، وأُخْرَى القَوْم أُخْرَيَاتُهُم». [3]

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، د.س، مج4، ص12.

[2]- المرجع نفسه، مج4، ص13.

[3]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج4، ص60.

ب) _ الأخر اصطلاحا:

إن فكرة الحديث عن **الآخر** في الأدب العربي تشكل تيمة ذات مكانة بارزة من خلال ارتباطها الجدلي بفكرة **الأنا**، فالإشارة إلى صورة **الآخر** تستدعي بالضرورة الوقوف على فكرة **الأنا** كمقابل لها بحيث لا يمكن الحديث عن واحد منهما بمعزل عن **الآخر**، «وبهذا المعنى يشكل **الآخر** بالنسبة **للأنا** جزءا مهما في تأكيد وعيها النوعي بنفسها».[1] فوجود **الآخر** يشكل ضرورة حتمية يتحقق بها وجود **الأنا**، بهذا فقد شكل **الآخر** نقيضا للذات أو **الأنا** في وجودها فعرف **الآخر** بأنه يعبر عن معنى صفة كل ما هو غير **الأنا**، وهذا يفرض التمايز والغيرية بين **الأنا** و**الآخر**.

ساد مصطلح **الآخر** كذلك في «دراسات الخطاب الاستعماري الكولونيالي، وما بعده الاستعماري إضافة إلى أطروحات النقد النسوي والدراسات الثقافية والاستشرافية». [2] فاندرج مفهوم **الآخر** في فضاءات متعددة وإيديولوجيات مختلفة في مجال البحث والدراسة.

وبدراستنا **للآخر** نجد بأنه لا يلغي **الأنا** بل يسعى جاهدا إلى أن يشكلها ويجعلها تنمو وتتوسع على النحو الذي يلعب فيه **الآخر** دورا جوهريا في تكوينها. وبهذا يشكل **الآخر** جزءا أساسيا يمّكن **الأنا** من معرفة نفسها واستمرارية حضورها في الوجود؛ وهذا ما تجسد فكرة أن **الأنا** «لا تعرف وجود نفسها إلا بالآخرين». [3]

---

[1]- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، ص279.

[2]- ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–المغرب، ط3، س2002، ص27.

[3]- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، ص281.

نجد بأن فكرة **الآخر** تجسد مفهوما أساسيا تتحدد من خلاله قيمة **الذات** ومكانتها بمقابلتها **للآخر** «ولا شك أن مفهوم **الآخر** يتأسس على مفهوم الجوهر أي أن ثمة سمة أساسية جوهرية تحدد "**الذات**" مما يجعل الآخر مختلفا عنها، وبالتالي لا ينتمي إلى نظامها أيا كان». [1]

وبهذا نكون قد رصدنا أهم التعريفات المتعلقة بمصطلحي الأنا والآخر في شقيهما اللغوي والاصطلاحي عبر مختلف القواميس والمعاجم العربية، التي تناولت هذين المفهومين من زوايا نظر مختلفة.

تعد علاقة **الأنا بالآخر** من أبرز القضايا إثارة للجدل والحوار في الوطن العربي، حيث تصدى لها الكثير من الأدباء والروائيين العرب في أعمالهم؛ وانقسموا في ذلك إلى شقين متباينين، فمنهم من نظر إلى هذه العلاقة بنظرة إيجابية متفائلة، ومنهم من رآها بأنها علاقة صراع وصدام دائم.

لهذا فقد شغلت هذه القضية فكر العديد من الروائيين في الساحة الأدبية العربية، أمثال **أحلام مستغانمي، حنا مينه، يوسف زيدان، تركي الحمد، واسيني الأعرج، وبهاء طاهر** إضافة إلى **غادة السمان** وغيرهم من الروائيين الأخرين، اللذين أصبحت هذه القضية شغلهم الشاغل، وهذا ما نجده في الكثير من أعمالهم التي صوروا فيها هذه الثنائية المتضادة باعتبارها علاقة صراع قائم بين **أنا** متخلفة و**آخر** متقدم، أي بين **الشرق والغرب.**

كان رفض **الآخر** وعدم قبوله من أبرز الملامح وصفا لعلاقة **الأنا بالآخر**، أو علاقة **الشرق بالغرب؛** فقد كان **الآخر** يشكل صورة النقيض في هذا الموقف فالعلاقة الحضارية بينهما هي علاقة صراع ورفض، ما تجسد في بعض الخطابات الروائية العربية فيجد الدارس لطبيعة هذا الصراع أن الرفض **للآخر** هو صورة نمطية كانت ولا تزال قائمة في الأعمال الأدبية خاصة الروائية منها، وهي نموذج ثابت بين طرفي الصراع **(الأنا والآخر)**؛ فكلاهما

[1]- ميجان الرويلي، سعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، ص22.

يتبنى مبدأ الرفض كخيار وحيد لهذه العلاقة، وبهذا تجسدت فكرة الرفض والعداء فيما بينهما وأصبح رفض **الآخر** متجذرا في الذاكرة الجماعية **للأنا**. وهو ما ترسخ في طبيعة اللقاء الحضاري الذي أصبح نمطا متوارثا مع مرور الزمن، وراسخا في ذاكرة **الأنا** الشرقية ونظيرتها الغربية من خلال نظرة كل منهما **للآخر**؛ حيث تبنت الرواية العربية طبيعة هذا الصراع الحضاري بين **الشرق والغرب** وعلى وجه الخصوص موقف رفضها **للآخر**.

تجسدت فكرة رفض **الآخر** في العديد من الأعمال الروائية العربية، وهو ما نجده واضحا على سبيل المثال في "ثلاثية أحلام مستغانمي"؛ الذي يعتبر منجز حاولت من خلاله الروائية تسليط الضوء على منعطفات هامة من تاريخ الأمة العربية، وبالأخص قضية الوجود الإسرائيلي في البلاد العربية، وعن أحداث حرب الخليج عام "1991"؛ متخذة من بلدها (الجزائر) نقطة مركزية ومرجعية لأحداث ثلاثيتها المكونة من "ذاكرة الجسد"، "فوضى الحواس" و"عابر سرير".

وما يهمنا هنا أن رفض **الآخر** جاء واضحا في أعمال الثلاثية، وهو مرتبط بفكرة رفض الخنوع العربي للأنظمة الداخلية والخارجية، مشكلةً بذلك منبرا تسلط فيه الضوء على "**الآخر** الغربي"؛ فكان هذا الطرح باديا أكثر في جل أحداث رواية "ذاكرة الجسد" و"فوضى الحواس"، خاصة فيما تعلق بحرب التحرير الجزائرية (1945)، إضافة للأحداث التي تبعتها في المنطقة العربية. وتصوير معاملة **الآخر** الفرنسي **للذات** العربية، ما يظهر جليا في هذه العبارة: «إن الإنسان الغربي أكثر شفقة على الحيوان منه على الإنسان، مما جعل المتسولين والمشردين يخرجون إلى التسول بصحبة كلب أو أحيانا كلبين».[1]

فمستغانمي هنا حاولت إظهار الجانب الخفي **للآخر** الذي كان مستترا وراء مبدأ الدعوة للتحضر والتمدن والحرية، لهذا ظلت صورة **الآخر** المغتصب المستعمر راسخة في مخيلة وتفكير **الأنا** المستعمَرة.

[1]-أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت–لبنان، ط2، س2003، ص 141.

ومن بين الروايات الأخرى التي يكون فيها **الآخر** حاملا لصورة مشوهة في نفسية الإنسان الشرقي؛ نجد رواية «عاهرة ونصف مجنون" للكاتب **حنا مينة** التي أبرز فيها جانبا مهما من ذاكرة **الأنا** الشرقية عن صورة المستعمِر الفرنسي؛ معبرا فيها عن وجدان الإنسان الشرقي تجاه المستعمر الغربي الذي تأسست عليه معظم صور اللقاء الحضاري؛ فمثلا نجد في هذه الرواية أن **الآخر** مثل صورة القاتل المغتصب، والناكث للوعود والعهود؛ وهذه العبارة أحسن مثال على ذلك "أخذ الوعود الفرنسية المعسولة على أنها وعود شرف غير مدرك أن الشرف في وعود المستعمرين في سفر هيهات منه يرجع».[1] ومن هنا فإن فكرة رفض **الآخر** كانت متجذرة ومبنية على صورة تعامل **الآخر** مع **الأنا** المستعمرة، حيث أن مجال الثقة فيه كان منعدما؛ وبهذا تتوسع فكرة الحقد والرفض **للآخر** من قبل **الأنا** نتيجة المعاناة المريرة والقاسية التي عاشتها من خلاله.

كما شكلت رواية "محال" **ليوسف زيدان** أنموذج خياليي يتمحور فيه وضع عالمنا العربي في ظل سيطرت القوى الاستعمارية، حيث أبرز **يوسف زيدان** في روايته هذه جملة من الأحداث يصف من خلالها مآل الإنسان العربي ضمن العلاقة المتوترة التي جمعت بين الإنسان العربي بنظيره الغربي، وجعلها منطلقا لمتنه الروائي الذي أدان فيه **زيدان** همجية **الآخر** واغتصابه لحريات وحقوق **الأنا**، **فالآخر** دائمًا يسعى إلى تغليط الحقائق وإعطاء صورة إيجابية عنه تساعده على فرض سيطرته والحفاظ على المكانة التي وصل إليها. ومن هنا جاء رفض **الآخر** في الرواية مبنيا عن الأفعال الهمجية التي قام بها في عدة بلدان وما اقترفه من تعذيب وقتل واضطهاد ودمار لشعوبها؛ وهذا ما يمكننا اكتشافه من خلال هذا القول: «إن أمريكا لم تدخل بلداً إلا دخل عليه الخراب والدمار». [2]

---

[1]- حنا مينة، عاهرة ونصف مجنون، دار الآداب، بيروت، د.ط، د.س، ص141.

[2]- يوسف زيدان، محال، دار الشروق، القاهرة–مصر، ط1، س2012، ص86.

إلى جانب هذه الروايات نجد رواية "ريح الجنة" للروائي السعودي **تركي الحمد**، التي حاول من خلالها رد الاعتبار **للذات** العربية على حساب **الآخر** الغربي، وعن طريق تصوره للعلاقات التي تربط بين الطرفين؛ **فالآخر** ينظر إلى العربي على أنه إرهابي متوحش من جهة، ومن جهة أخرى يوضح لنا نظرة العربي الذي يرى في **الآخر** صورة الكافر المتكبر والمستغل «يا لهم من مستكبرين...يريدون الوصول إلى السماء كما سبق للنمرود أن فعل ولكن هيهات لهم فالسماء لا يصلها إلا رب السماء أما هؤلاء الكفرة ليس لهم غلا سقر وأودية جهنم الملتهبة...سندك أبراجهم هذه ونجعلهم أضحوكة العالمين...أمريكا بكل هيبتها وجبروتها ستدفع الثمن غاليا اليوم لتحديها الإسلام وأهله.»[1] **فالحمد** هنا أظهر لنا مدى تشبع **الأنا** العربية بالحقد والكراهية ضد **الآخر** الغربي من خلال بواطن الشخصيات وظواهرها.

وعلى هذا الأساس يتبين لنا أن الظروف الاجتماعية والسياسية التي نشأت فيها **الأنا** أو **الذات** العربية هي التي ولدت هذا التصدي الشديد **للآخر** الغربي؛ فحسب التاريخ الذي شهد حروبًا ودمارًا كان الغرب فيها بطلًا دون أي منازع، بالمقابل عرف العرب تشّتتًا وتخلّفا متذيّلا بذلك صفات هذا التاريخ حاملا رايات التأثر السلبي لغاية الآن ولا يزال يتأثر سلبا في جوانب ومجالات الحياة اليومية، سواء في المجال النفسي أو الاجتماعي وحتى الثقافي؛ بالتالي **فالأنا** أو **الذات** العربية المقهورة إن صحّ التعبير تعاني معاناة محيطة ونامية منبعها الضعف والانحطاط والتخلف القاسي الذي يجبرها على هذا الوضع دون آخر، منه فإن هذا التصدي يبدو عاديا وغير عادي في آن واحد بمعنى أدق كل الظروف وكلّ الأحداث ساهمت في بروز هذا الصراع بين الغرب المتقدم والعرب المتخلف، أو بمفهوم آخر **الأنا** المتخلفة و**الآخر** المتقدم.

[1]-تركي الحمد، ريح الجنة، دار الساقي، بيروت–لبنان، ط4، د.س، ص16.

من خلال دراستنا السابقة للنماذج الروائية التي تجسدت فيها علاقة رفض **الأنا للآخر** والصدام الحضاري الذي كان موجودا بينهما، نجد في الجانب الآخر من هذه الدراسة بأن هناك نماذج روائية أخرى أبرزت الجانب الآخر لتلك العلاقة وهو فكرة القبول الحضاري **للآخر** والتعايش السلمي معه، ما تفرضه حتمية اللقاء بين **الشرق والغرب**؛ فإذا كنا استحضرنا في بداية الدراسة روايات تجلت فيها فكرة رفض **الأنا للآخر**، فإننا في هذا الموقف سنذكر مجموعة أخرى تبنت فكرة التصالح مع **الآخر** وقبوله.

ومن أبرز هذه النماذج الروائية نجد رواية "كتاب الأمير" للروائي الجزائري **واسيني الأعرج**، التي بث فيها العديد من المشاهد الحوارية التي أعربت عن انفتاح **الأنا** الجزائية على **الأخر** الفرنسي في الجانب الحضاري والثقافي؛ فقد **تبنى وسيني** الأعرج في هذه الرواية فكرة انفتاح شخصية **الأمير عبد القادر** وتعايشه مع **الآخر** الغربي لمسايرة ومواكبة روح العصر آنذاك، والذي شهد تطورا وازدهارا ملحوظا فانفتح أمام أبواب حضارة وثقافة وعلوم **الآخر** المستعمر، حيث قرأ واطلع على العديد من الكتابات الفرنسية وقرأ الإنجيل؛ وهذا ما يظهر في حواره مع القس **مونسينيور ديبوش** «بدأت أقرأ كتابكم الإنجيل».[1] **فالأمير** هنا يأخذ بكل الطرق والسبل التي توصِل إلى التقدم والتطور والازدهار، وهذا من خلال تأثره بالأفكار والمفاهيم الغربية؛ فنجده يحاكيهم في الميدان العسكري بشكل كبير، ويتجلى هذا في عبارته «نتمنى أن نستفيد من خبرة الفرنسيين لخلق جيش نظامي عتيد».[2] فالأمير هنا ينفتح في علاقته مع **الآخر** متخذا في ذلك طابعا سلميا توافقيا بعيدا كليا عن فكرة العنف والحرب والدماء من خلال تجسيد فكرة السلم والوئام والإنسانية.

---

[1]-واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت، ط2، س2008، ص36.

[2]-المرجع نفسه، ص263.

يعتبر **بهاء طاهر** من بين الروائيين العرب الذين أبدو إعجابهم وانفتاحهم على **الآخر** الغربي، وهو روائي مصري معاصر صور لنا في روايته "واحة الغروب" طبيعة العلاقة بين **الأنا** المصرية و**الآخر** الغربي المتمثل في الحضارة اليونانية**(الإسكندر)**؛ مبرزا في هذه الرواية نظرته الإيجابية **للآخر** وفكرة تقبله له، فهو يراه ذا فضائل إنسانية عديدة على المجتمع المصري بعد محاربته للفرس ومحاولته إرساء مبدأ العدل والمساواة؛ فقد خصص **بهاء طاهر** جزءا من روايته "واحة الغروب" يتكلم فيه على لسان **(الإسكندر)** المقدوني معددا خصاله ومناقبه الإنسانية وما قام به من فتوحات، خاصة بعد تخليصه للمصريين من ظلم الفرس، وهذا ما يظهر في هذا المقطع من الرواية «حلمت أن أملأ الأرض بنسل جديد...فلا تكون بينهم بعد ذلك ضغينة ولا حروب أراد **(الإسكندر)** أن يخلق عالما لا يكون فيه أشقر وأسمر ولا فرق فيه بين من يعبد زيوس أو نار فارس أو آلهة الهند».[1] فوصف **الآخر** بهذه الصفات يجعله إيجابيا ومقبولا في نظر **الأنا** إلى حد ما، وهو ما يجسده مبدأ التسامح بين **الأنا** و**الآخر** في هذه الرواية.

يبين لنا **بهاء طاهر** في واحة الغروب فكرة تقبل **الأنا** المصرية لتواجد **الآخر** في بلادها وهي مرحبة به، نتيجة لما قدمه **(الإسكندر)** من معروف للبلاد المصرية وتخليصها من أيادي الفرس، فكان هدفه خلق عالم جديد لا ينتمي إلى العالم المألوف، ويصل إلى ما لم يصل إليه بشر من قبل، وعندما نمعن النظر كثيرا في الآراء التي قدمها **بهاء طاهر** في هذه الرواية نستطيع أن نستنتج موقفه الإيجابي نحو **الآخر**.

[1]- بهاء طاهر، واحة الغروب، دار الشروق، القاهرة–مصر، ط11، س2013، ص134.

إضافة إلى النماذج الروائية التي تناولناها سابقا والتي جسدت فكرة قبول **الآخر** والتعايش السلمي معه، نجد رواية أخرى لا تقل عنهما أهمية في هذا الجانب وهي رواية "الجسد حقيبة سفر" للروائية السورية **غادة السمان**، حيث تناولت فيها **الآخر** الأوربي على وجه العموم والإنسان الانجليزي على وجه الخصوص والذي حظي بالنصيب الأوفر من حديثها؛ تجسد ذلك في اهتمامها الكبير بدراسة ثقافة وبنية **الآخر** الانجليزي من أجل فهم خصوصية علاقة **الأنا بالآخر**، والتوجه الفكري لكل منهما؛ **فالسمان** هنا تتجاوز المرجعية التاريخية والعزوف العربي عن **الآخر**، وتلتزم بالموضوعية في الدراسة. كما تشيد بتوفر الحرية والصدق والكرامة لدى **الآخر** البريطاني التي يفتقر إليها الوطن العربي، محاولة وضع توازن بين الجانب السلبي والإيجابي لعلاقة **الأنا بالآخر** وإعطائها الصورة الحسنة والوجه الإيجابي **للآخر** البريطاني.

كان **للسمان** تعلق كبير يشدها دائما إلى لندن بالرغم من مغادرتها هذه البلاد وكانت دائما تدعو العرب للاحتذاء بها والسير على نفس النهج الذي اتبعته هذه الحضارة الغربية وهو ما نجده في قولها: «وبعيدا عن كل هذا يطل الوجه الآخر للندن، المدينة العجيبة، وجه مشرق وإنساني وفيه أمثلة تحتذي ما نفتقر إليها في عالمنا العربي. كنت أحس بالغيرة كلما مررت بإحداها». [1]

فقد كان للندن بالغ الأثر في وجدان الكاتبة وانبهار لا مثيل له حيث أعجبت بها بشكل كبير، ما نجده واضحا في هذه العبارة «عن لندن أخرى أتحدث هذه المرة، عن لندن الجميلة لندن الحقيقة، لندن الإنسان والحرية، لندن الفن والفكر والمسرح، لندن الطريفة والبريئة، لندن التي تشدني إليها أبدا أينما كنت. أرحل عنها إليها، أغادرها ولكن تجدني أبدا راجعة. عن لندن المعتقة بالمثل والإنسانية أكتب هذه المرة». [2] فصورة (لندن) وجمالها ظلت قابعة في نفسية

---

[1]- غادة السمان، الجسد حقيبة سفر، منشورات غادة السمان، بيروت–لبنان، د.ط، د.س، ص12.

[2]- المرجع نفسه، ص123.

السمان التي أبت ألا تغادرها، فكانت دائمة الحنين والاشتياق لها «أجدني دوما أعود إلى لندن بحنين العاشق». [1]

فغادة السمان في هذه الرواية تبدي رغبتها في تجسيد مبدأ الموضوعية في علاقة **الأنا بالآخر** من خلال تجاوز تلك الصورة النمطية (الكراهية) التي رسمتها المخيلة العربية **للآخر** الغربي.

تكملة لما درسناه سابقا في علاقة **الأنا بالآخر** والمواقف المتباينة فيها، التي تجسدت أولا في دراسة نماذج روائية تظهر موقف الرفض والصدام مع **الآخر** وعدم قبوله ومعاداته؛ ثم عرجنا إلى دراسة نماذج روائية أخرى تجسدت فيها فكرة الإعجاب **بالآخر** والانفتاح عليه والتأثر به، فكل موقف من هذين الموقفين له أسبابه ودوافعه التي بني على أساسها وجهة نظره.

ليظهر في الأخير موقف آخر وسطي توافقي تتجلى فيه رؤية تسامحية اتوازن بين **الأنا والآخر**، فهي لا تمجده كل التمجيد كما أنها لا ترفضه ولا تنفصل عنه كليا، إنما تكون نظرة وسطية بين هذا وذاك؛ وفي هذا الموقف تنظر **الأنا للآخر** بنظرة متساوية معها تقوم على مبدأ الحيادية والاعتدال اتجاه هذا **الآخر** مهما كانت طبيعته الحضارية والثقافية المختلفة عنها ليكون التعامل بين **الأنا والآخر** متجاوزا للخلافات الموجودة بينهما وقبوله على الهيئة التي وجد عليها لا التي ينبغي أن يكون عليها، وهو الموقف الموضوعي الذي يجب أن تنبي عليه علاقة **الأنا بالآخر**؛ فليس من الضروري أن يكون هناك دائما اتصال وتوافق في العلاقة بينهما من جهة، كما أنه ليس من الضروري أن تكون هناك علاقة تنافر كلي بينهما من جهة أخرى فهذا الموقف له رأي خاص يختلف بدوره عن الموقفين السابقين (الرافض والقابل) لفكرة **الآخر** لأنه يتأسس على فكرة الاحترام والتقدير والحوار المتبادل بين **الأنا والآخر** إعلاءً للجانب

[1]-غادة السمان، الجسد حقيبة سفر، ص270.

الإنساني «فإن كان منطق الأنا يحترم في تصوراته الآخر وكان ذلك متبادلا كان التوازن والاعتدال في العلاقات».[1]

فهذا الرأي تتجسد فيه فكرة التعايش السلمي مع **الآخر**، حيث نجد هذه العلاقة واضحة في مقولة: «فكر **الآخر** لم يعد ذلك النوع من التفكير الذي ينظر إلى **الأنا والآخر** نقيضين متمايزين، وإنما يلزم النظر إليهما من جهتين متكاملتين...هو المبدأ الذي يؤسس لضرورة المشاركة لإيجاد حلول».[2] ومن خلال هذا الرأي نجد بأن علاقة التكامل بين **الأنا والآخر** هي علاقة ضرورية من أجل تجسيد مبدأ التواصل الحضاري، ووسطية العلاقة بينهما لديها خصائص عديدة مشتركة مع الرأيين السابقين فإذا وجدنا بأن **الأنا** معجبة **بالآخر** فإن هذا الإعجاب يكون جزئيا فقط دون طمس للهوية؛ كما أن موقف الرفض لا يكون رفضا كليا حيث يكتفي بأخذ الجانب الإيجابي **للآخر** فقط؛ ففكرة الحوار المتسامح والمتكافئ في علاقة **الأنا بالآخر** عبارة عن ثمرة العطاء المتبادل من أجل تجاوز فكرة الاختلافات بين الحضارات التي تتجسد من خلالها الأفكار الأخلاقية والإنسانية السامية. وبما أن عملية الحوار تتطلب في أساسها فكرة قبول **الأنا للآخر** وتفاعلها معه من أجل تجسيد فكرة التسامح بينهما. فمعرفة **الآخر** لا تتم إلا بواسطة الحوار المتسامح والانفتاح عليه، لأن ذلك يؤدي لاكتشاف طبيعة **الأنا** داخل **الآخر**. وبهذا يكون الاكتشاف الحقيقي **للأنا والآخر** من خلال التفاعل الإيجابي بينهما حيث نجد أن «التعاون والتفاعل بين الحضارات هو الشكل الأمثل لتعامل الحضارات المعاصرة مع بعضها البعض، ففيها يتم التواصل بينهما. يساعدها على ذلك كل وسائل

---

[1]- أحمد مداس، المعرفة واستثار الأنا بإنتاج الآخر، مجلة المخبر (أبحاث في اللغة والأدب الجزائري)، ع9، ص12.

[2]- طراد حمادة، خطاب الآخر، دار الهادي، بيروت–لبنان، ط1، س2006، ص8.

الاتصال والتفاعل الحديثين. وبذلك نضمن حماية مفهوم التعدد الحضاري والهويات الذاتية للأمم، ومنها هوية الأمة العربية». [1]

ومن خلال كل هذا الطرح نستنتج بأنه لا يمكننا فصل **الأنا** عن **الآخر** فهما متلازمان، وهذا التلازم الموجود بينهما لا يمكن الغفلة عنه أو إخفاءه لأن حضور أي منهما يستوجب بالضرورة استحضار الآخر تلقائيا.

[1]-ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، س2010، ص73.

الفصل الأول: تعدد رؤى الأنا للآخر في الرواية العربية

- رؤية انبهار الأنا العربي بالآخر الغربي
- رؤية الأنا الحضارية تجاه الآخر
- الرؤية السياسية بين العرب والغرب
- الرؤية العدوانية تجاه الآخر

لعل من بين أهم القضايا والمسائل التي أثارت جدلا واسعا في الساحة الأدبية العربية هي العلاقة التي تجمع بين **الشرق** و**الغرب** من خلال نقاط الالتقاء والتنافر بين العالمين وهو ما نال اهتمام العديد من الكتابات الروائية العربية المعاصرة من خلال تعدد رؤيتها لعلاقة **الأنا** ب**الآخر**؛ من زوايا نظر متنوعة ومختلفة تتجسد فيها الآراء والمواقف لهذه الرؤية المتباينة في المتون الروائية، وذلك أن العلاقة بين **الأنا** الشرقية و**الآخر** الغربي تشكل في حد ذاتها جدلية واسعة؛ تنعكس سلبا أو إيجابا على الواقع الاجتماعي والسياسي بينهما، وهذا كون أن **الشرق** و**الغرب** شكلا في تلك المتون عالما واسعا يتخطى الحدود الجغرافية والمكانية الضيقة والمحدودة؛ بل يتعداه إلى كونهما يرمزان لفضاء حضاري وثقافي شامل يجسد البعد الاجتماعي بينهما وقيم التقدم والتخلف ونقاط الالتقاء والاختلاف.

ومن بين أهم الرؤى التي تجسدت في هذه المتون الروائية نجد **الرؤية الانبهارية** التي تشكلت بعد أول لقاء جمع بين الحضارة العربية والغربية. وتبرز بشكل جلي في رواية "تخليص الابريز في تلخيص باريز"، للروائي العربي **رفاعة الطهطاوي**. ثم تليها مباشرة رؤية أخرى تختلف عن الأولى وهي **الرؤية الحضارية**؛ التي نجدها بارزة في عدة أعمال روائية كرواية "عصفور من الشرق" **لتوفيق الحكيم**، ورواية "الأيام" **لطه حسين**؛ لتبرز بعد هاتين الرؤيتين رؤية ثالثة مغايرة تماما عن موضوع الأولى والثانية وهي **الرؤية السياسية**، ما نجده واضحاً في رواية "الشرق المتوسط" **لعبد الرحمان منيف**، و"نجمة أغسطس" **لصنع الله إبراهيم**؛ ثم في الأخير تتشكل **رؤية عدوانية** للغرب وهي الرؤية التي تبنتها جل الروايات العربية كرواية "عائد إلى حيفا" للروائي **غسان كنفاني**، ورواية "الرحلة الأصعب" **لفدوى طوقان** .

عدت هذه الرؤى من أهم الصور التي برزت فيها علاقة احتكاك **الشرق بالغرب** في الكتابات الروائية التي ذكرناها سابقا، فهي التي توضح الحالة التي آلت إليها العرب بعد

الاحتكاك المباشر بالغرب لفترات مختلفة من الزمن؛ وفي هذا العرض سنحاول الوقوف عند كل رؤية على حدًا بشيء من التفصيل والتمثيل لكل رؤية.

1-رؤية انبهار الأنا العربي بالآخر الغربي:

إن الحديث عن **الرؤية الانبهارية** نقصد به على العموم تلك النظرة الأولية القائمة على موقف الانبهار والاندهاش والتعجب، الذي تتميز به **الأنا** وهي تتفحص كل المنجزات الحضارية الكبرى التي وصل إليها **الآخر** في شتى العلوم والميادين المختلفة، وقد تأثرت كثيرا بهذا التقدم والازدهار؛ محاولة مواكبة هذا الركب الحضاري الكبير والواسع والانغماس فيه، آخذتا في ذلك بكل التناقضات المتباينة بين كل من **الشرق والغرب**؛ حيث كان هذا الانبهار وليد فكرة الحداثة من جهة أولى، ومتأثرًا بفكرة الاستعمار من جهة ثانية.

أ) رفاعة الطهطاوي (تخليص الإبريز في تلخيص باريز):

تعد هذه الرواية من بين أهم الروايات العربية السباقة لهذا المنحى، والتي كان لها الفضل في وإبراز هذه **الرؤية الانبهارية** بشكل واضح، حيث صور لنا فيها الروائي جدلية **الأنا** و**الآخر** من خلال **رؤية انبهارية** واضحة المعالم، يسرد لنا فيها «رحلة يقوم بها طالب مصري إلى باريس في أواخر القرن التاسع عشر. فيصف جغرافيتها ثم ينبهر بحضارتها وعلومها، وفنونها وأنظمتها السياسية والدستورية والادارية، ثم يعجب بسكانها وأخلاقهم ومنازلهم وصحتهم»؛ [1] ومن خلال كل هذا يظهر لنا بأن العمل الروائي الابداعي الذي تطرقنا له عبارة عن نظرة روائية تعليمية تثقيفية، يجسد فيها **الطهطاوي رؤية انبهارية** متعلقة كثيرا بتمجيد العقلية الحضارية الفرنسية ومقابلتها بتخلف العقلية العربية الشرقية في جميع المستويات والميادين.

---

[1]-جميل حمداوي، صور جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، صحيفة المثقف، ع 1440، س2010. www.almothaqaf.com

ركز **الطهطاوي** كثيرا في روايته على إبراز الجانب الفكري الواضح على حساب الجانب الأدبي، لأنه أظهر لنا عقلية عربية جديدة متفتحة ومتأثرة كثيرا بالحياة الاجتماعية الأوربية؛ وبمختلف ميادين علومهم المتنوعة؛ كما أنه يصرح ويعترف في الكثير من مواقفه بحقيقة تقدم الأوربيين في شتى الميادين مقارنة بالمجتمع العربي، وبهذا فقد كانت **رؤية الانبهار** واضحة المعالم في ثنايا روايته؛ وهي الرؤية المهيمنة والمسيطرة فيها بشكل كبير.

إن أول ما شد انتباه **الطهطاوي** في مدينة (باريس) هو موقعها الجغرافي الذي تأثر به كثيرا واسترسل في وصفه لنا من مختلف الجوانب، سواء من حيث أصل اسم مدينة (باريس) فيقول «سميت بذلك: لأن الطائفة من قدماء الفرنساوية كانت على نهر السين تسمى، (الباريزيين) ومعناها في اللسان القديم الفرنساوي سكان الأطراف والحواشي، وليس هذا الاسم منقولا من (باريس) اسم رجل شهير كما قاله بعضهم». [1] فباريس تعد من بين أعظم مدائن الدنيا وأكثرها شهرة واستقطابًا وهي مركز بلاد الفرنسيين، لدرجة أنّها وصفت بعاصمة الجن والملائكة.

كما تحدث بعدها عن موقع (باريس) الجغرافي بشكل واضح أبرز فيه حدودها المختلفة، فنجده يقول مثلا: «هي موضوعة في التاسعة والأربعين درجة وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، يعني أنها بعيدة عن خط الاستواء جهة الشمال بهذا القدر... وأما طولها فإنه يختلف، فإذا اعتبرنا خط نصف النهار الذي ينسب إليه الفرنساوية أطول سائر الأماكن». [2]

إضافة إلى حديثه عن الأصل والموقع، ركز كذلك على المناخ الذي تتميز به مدينة (باريس)، قائلا: «ومن المعلوم أنها من بلاد المنطقة المعتدلة، ليست في غاية الحرارة، ولا

---

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي، تلخيص الابريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، د.ط، د.س، ص 70.

[2]- المرجع نفسه، ص 70.

في غاية البرودة...والأغلب فيها عدم صحو الزمن وكثرة الغيوم...وأما المطر فإنه لا ينقطع في هذه المدينة في سائر فصول السنة». [1]

تأثر **الطهطاوي** كثيرا بالمجتمع الأوربي وبأهل (باريس) على وجه الخصوص، فرأى فيهم تميزهم بذكاء العقل ورجاحته ومقدرتهم الكبيرة على دقة الفهم والاستيعاب للأشياء من حولهم؛ كما يتميزون بولعهم الشديد بحب المعرفة والبحث والاستكشاف. فهم أصحاب ثقافة واسعة بحيث يتميز جلهم بمعرفتهم لخاصية القراءة والكتابة، «أن البارزيين يختصون بذكاء العقل، ودقة الفهم...يحبون دائما معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه». [2] فهم يمتلكون ملكة الابداع والتفرد في الفنون والعلوم والأشياء التي ابتدعوها حيث لم يكن لها سابق من قبل.

أما الشيء الذي جذب انتباهه أكثر هو خصال أهل (باريس) المتمثلة في محبتهم للغرباء والميل الشديد لمعاشرتهم عكس ما تفتقده المجتمعات العربية، التي تتميز بالحيادية والانطوائية في المعاملة. كما رأى فيهم ميزة أساسية تقوم غالبا على احترام الحقوق الواجبة عليه وتأديتها على أكمل وجه؛ فقد تعجب كثيرا من حيويتهم ونشاطهم ومحبتهم الدائمة للعمل وتقديسهم إياه، «ومن طباعهم الغالبة وفاء الوعد وعدم الغدر. وقلة الخيانة». [3] ونجده أيضا أبدا إعجابا كبيرا بالفنون والعلوم الفرنسية المتنوعة خاصة فيما تعلق بجانبها التنظيمي كوضعهم كل «علم على حدى في قاموس مرتب على حروف المعجم». [4]

في محطة أخرى تأثر **الطهطاوي** بشكل بليغ في تدبير الدولة الفرنسية، وكان هذا التأثر كبيرًا خاصة فيما تعلق بجانب الأحكام القانونية في تدبير أمور الدولة وتسيير شؤونها

---

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي، تلخيص الابريز في تلخيص باريز، ص 74.

[2]- المرجع نفسه، ص 83.

[3]- المرجع نفسه، ص 85.

[4]- المرجع نفسه، ص 100.

فالمجتمع الفرنسي كان محترما لمبادئ هذه الأحكام وخاضعا لتدابيرها؛ ومن خلال كل هذا يتضح لنا بأن سياسة الدولة الفرنسية هي سياسة مقيدة تقوم على قانون واضح الأبعاد من خلال تسيير شؤون الدولة وأمورها وفقا لما هو منصوص ومتعارف عليه في القوانين الفرنسية، التي هي سائرة المفعول بين أفراد المجتمع. وبهذا نلتمس المساواة والعدالة الاجتماعية بينهم من خلال حفظ حقوق وواجبات كل فرد من الأفراد داخل الدولة؛ والذي يبدو واضحا في قوله: «لتعرف كيف قد حكمت عقولهم بأن العدل والإنصاف من أسباب تعمير المماليك وراحة العباد...حتى عمرت بلادهم وكثرت معارفهم وتراكم غناهم، وارتاحت قلوبهم، فلا تسمع فيهم من يشكوا ظلما أبدا والعدل أساس العمران».[1] فاشتهرت الحضارة الفرنسية بميزة المثالية، وذلك من خلال تزيين عمرانها وشوارعها اللافتة للنظر؛ فاعتبرت (باريس) بهذا من بين المدن العظمى (لفرنسا) حيث انفردت بمكانة خاصة في بلاد الإفرنج. فيظهر انبهار **الطهطاوي** بشكل كبير في ميدان العمران فيما تعلق بهندسة تقسيم البيوت فهي تتفاوت في المحتوى والشكل معا؛ فالأولى منها هي بيوت تأتي بشكل عادي وبسيط يسكنها أناس بسطاء، بينما الثانية تعتبر ديارًا يسكنها أناس ميسوري الحال، في حين أن الثالثة هي قصور يسكنها الملوك والأمراء وحاشيتهم؛ ثم أشار إلى نظافة (باريس) ونقائها فهي مدينة لافتة للنظر؛ ويظهر هذا من خلال شوارعها النظيفة والبراقة الخالية من الأوساخ والنفايات، كما اشتهرت بيوتها هي الأخرى بنظافتها وزينتها من الداخل والخارج؛ فقدمت بهذا صورة ومظهرًا جميلا لمدينة (باريس).

وانبهر كذلك **الطهطاوي** بعادات وممارسات أهل (باريس) فيما يخص المأكل والمشرب فقد رأى بأن لهم طريقة خاصة في إعداد الطعام واستهلاك أنواع المشروبات فيستهلكون الخبز المصنوع من الحنطة؛ حيث يفرض على الخبازين توفير القدر اليومي من احتياجات سكان المدينة لهذه المادة الأساسية، وتميزت طبيعة العيش لدى أهل (باريس) في

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز، ص105.

استهلاكهم لكل ضروريات الأكل الصحي من لحوم وخضراوات وألبان وغيرهم. «فأدب سفرتهم وترتيبها عظيمة جدا...والغالب في الشراب عندهم النبيذ على الأكل بدل الماء...يشرب من النبيذ قدرا لا يحصل به سكر أصلا». [1]

لم يغفل **الطهطاوي** في إبداء إعجابه بطريقة اللعب لدى سكان هذه المدينة، فقد رأى أن طريقة لعبهم كانت هي الأخرى لا تخلو من طرح المسائل العلمية المتنوعة في وقت اللعب والمزاح؛ وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على سعة اطلاعهم؛ ومن الأمور كذلك التي حازت على أكثر على اهتمام الروائي للمجتمع الفرنسي اعتنائهم بصحة الأبدان وطرق رعايتها. وهو ما جعله يبدي اعجابا وانبهارا كبيرا فيما يخص هذا الجانب، الأمر الذي جعل من (باريس) قبلة يرتد إليها طلاب العلم والمرضى من كل أنحاء العالم بغية الدراسة والعلاج؛ والتعرف على مختلف العلوم الطبية وطرق تطورها ومستجداتها التي تواكب أمراض العصر، الأمر الذي جعل من باريس وجهة طبية بامتياز.

ب) علي مبارك (رواية علم الدين):

تعد من بين أهم الروايات العربية التي تجسدت فيها **الرؤية الانبهارية** بالحضارة الغربية، وعلومها وفنونها المتعددة؛ فهي رواية ذات طابع سياحي تدور أحداثها حول رحلة الشيخ المصري إلى (فرنسا)، تحمل هذه الرواية في طياتها إعجابه وانبهاره الكبير بالحضارة الفرنسية، وبما صادفه فيها من تطور كبير في شتى العلوم والمعارف السائدة لدى الفرنسيين. فرغم تواجد الشيخ المصري في مدينة (باريس) وخروجه اليومي لشوارعها، إلا أن إعجابه بها يزداد يوما بعد يوم وكأنه يراها للمرة الأولى؛ فهي تمتاز بكبرها وكثافة سكانها الذين كانوا دائمي الحركة ليلا ونهارًا عكس ما ألفه في بلاد **الشرق**، فنجد مدينة (باريس) تمثلت في عين الشيخ وكأنها صرح ثقافي عظيم لا مثيل له في الوجود، ما دفعه يثني عليها قائلا: «أن

[1]- رفاعة رافع الطهطاوي، تخليص الابريز في تلخيص باريز ص115.

مدينة باريز لمن أعجب مدن الدنيا بما حوته من المحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة أهلها وحسن بناءها». [1]

كما رأى أن (باريس) تشكل قطبا تجاريا استراتيجيا ترد إليه السلع والبضائع المتنوعة من مختلف أطراف الدنيا ومن جميع أنحاء العالم. كما أنها تقوم بتصدير السلع المتنوعة لكل أقطار المعمورة، وهذا ما يبرره قائلا: «مدينة باريز...هي أيضا مركز لتجارة واسعة ترد إليها من جميع أطراف دولتها ومن جميع أقطار الدنيا وأصدر منها إلى البقاع كافة». [2]

ومن بين الأمور التي لفتت انتباه الشيخ خلال فترة تواجده في (باريس) هو طبيعتها الساحرة المتمثلة في الحدائق المنظمة التي لا تكاد تخلو من أي نوع من الأشجار والأزهار مما جعل الجو فيها لطيفا؛ فاستأنس الشيخ في هذه الطبيعة بما وجده فيها من حفيف الأشجار وتغريد الطيور والبلابل وخرير مياه الجداول والأنهار؛ ما بعث في وجدان الشيخ السرور والطمأنينة واحساسه براحة نفسية لا مثيل لها؛ وهذا ما يؤكده قائلا: «أن النفس لهذا المكان قد انبسطت والأبدان من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافيا». [3]

مما لا شك فيه أن انبهار الشيخ **بالغرب** لم يقتصر فقط على الأمور التي ذكرناها سابقا، إنما تخطاها إلى إعجابه بكل ما هو متعلق بالفكر والاختراعات التي تبدو غريبة في الوهلة الأولى، إلا أنها تقدم خدمات جلية للبشرية وتساعدهم في ربح الوقت والجهد معا. ما يبرز لنا كيفية استغلالهم الجيد للفكر من أجل تحسين أمور الدنيا.

---

[1]- علي باشا مبارك، علم الدين، جريدة المحروسة، الاسكندرية، د.ط، س1882، ج1، ص1236.

[2]- المرجع نفسه، ص 1338.

[3]- المرجع نفسه، ص 1240.

ومن هنا نستنتج بأن هؤلاء الروائيين كان لهم فضل الأسبقية **للانبهار** بالحضارة الغربية تمجيدًا لمبادئها وتعاليمها التي أدهشتهم كثيرا؛ حيث سعو جاهدين في متونهم الروائية إلى الانفتاح على الحضارة الغربية وقيمها، موازاة بنظيرتها الشرقية التي يرون بأنها تفتقر للمقومات الأساسية للحاق بهذا الركب الحضاري ومسايرته؛ فركزوا في دراستهم على كشف الهوة بين التقدم الذي وصل إليه **الغرب**، والتخلف الذي لا يزال يتخبط فيه **الشرق** العربي. كما نجد أن هؤلاء الروائيون ركزوا على وصف الحضارة الغربية وما وصلت إليه من تقدم وازدهار كبيرين في شتى الميادين. الشيء الذي جعلهم ينسلخون عن هويتهم ويذوبون في هوية الآخر، «فالتبعية هي إذا من نتائج الانبهار بالآخر والتي قد يصل فيها الإنسان إلى الكفر والإيمان...والرؤية الانبهارية هي في حد ذاتها سلاح ذو حدين فأن تنبهر بثقافة لا تضاهي ثقافتك وحضارة أحدث من حضارتك هذا أمر معقول وارد، ولكن أن تنبهر بها لدرجة أنها تفتت نفسيتك وتغيب هويتك، فهنا انت الضحية لأن الأمر قد وصل لحد إنكارك لذاتك وشرقانيتك»؛ [1] وعلى هذا الأساس فإن الانبهار بالآخر والانفتاح على ثقافته وحضارته بغية النهل من علومه والاستفادة منها ومواكبة العصر هو أمر طبيعي؛ إلا أن الانفتاح على هذا الآخر والانغماس في حضارته على النحو الذي تتسلخ فيه عن مقومات هويتك ومبادئها الأساسية يصبح أمرًا مبالغا فيه بل ومرفوضا تماما لأنك ستعاني هنا من مشكل انفصام الشخصية.

2-رؤية الأنا الحضارية تجاه الآخر:

بما أن الفترة الأولى من القرن (19) اتسمت باحتضان الروائيين **للرؤية الانبهارية** في أعمالهم الفنية في مرحلتها الأولى، جاءت بعدها مرحلة ثانية تشكلت فيها رؤية مغايرة لهذا المنحى متخذتا شكلا روائيا إبداعيا جديدا في بداية (القرن 20)، من خلال وجهة نظر

[1]- نقلا عن عماد بالوافي، جدلية الشرق والغرب في رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، س2014/2013، ص49.

بعض المفكرين والمثقفين العرب وموقفهم الحضاري من الغرب لاعتباره موطن الحداثة والتقدم. وكان هذا بريادة جيل من الروائيين والمفكرين اللذين حملوا على عاتقهم رحلة السفر إلى الغرب لغرض طرق باب العلم والاستكشاف الحضاري؛ وعلى سبيل المثال نذكر منهم **طه حسين** من خلال روايته "الأيام"، **وتوفيق الحكيم** في روايته "عصفور من الشرق"...وغيرهم من الروائيين **كسهيل إدريس** في "الحي اللاتيني" **والطيب صالح** في "موسم الهجرة إلى الشمال وآخرون.

أ) طه حسين (رواية الأيام):

تحققت **الرؤية الحضارية** في رواية "الأيام" **لطه حسين** من خلال استعادته فيها لمجموعة من المحطات المهمة في حياته؛ والتي كان لها تأثير كبير على نفسيته، وشكلت مرحلة سفره إلى (فرنسا) أهم محطة في الرواية حيث يسافر فيها البطل لاستكمال دراسته العليا فيها، والتي شكلت حلما بالنسبة له قد تحقق بعد أن تيقن بأنه مسافر إلى (فرنسا) عند منحه تأشيرة السفر من طرف الجامعة المصرية، وهو ما جعل بطل الرواية يعمل على تهيئة نفسه استعدادًا للسفر بكل فرح وسرور بعد منحه هذه التأشيرة. «ويقبل اليوم الموعود فيسافر الفتى من القاهرة ومعه أخ له يرافقه في سفره ويحيا معه في فرنسا ليتم درسه هناك». [1]

وبعد وصول الفتى إلى (فرنسا) أخذ يوازن بين الحياة الشرقية التي كان يعيشها في بلاده، وبين الحياة الجديدة التي عاشها في المدينة الفرنسية، فأصبح يعيش حياة اليسر والرخاء ولم يشعر فيها قط بجوع أو حرمان؛ فحين يقدم له الطعام يجد فيه من اختلاف في الأطباق والأشكال وتنوعها ما لم يكن يعرفه في بلاد **الشرق**، مع تلذذه بكل أنواع الفواكه وكان هذا السخاء يعرض عليه بغير تضييق ولا حساب، وفي إلحاح كبير منهم بأن يصيب ما استطاع إليه من ذلك السخاء.

---

[1]- طه حسين، الأيام، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، ط1، س1992، ص 400.

وتتضح **الرؤية الحضارية** عند ذهاب البطل إلى الجامعة وسماعه فيها للدروس المتنوعة في ميادين الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية، حيث لا يكاد يسمع فيها درسا إلا وأحس بأنه علم أشياء جديدة لم يكن يعلمها من قبل؛ وأضاف بها علما جديدا لعلمه القديم حيث أنه لم يجد صعوبة كبيرة في استيعاب الدروس التي كان يلقيها الأساتذة في الجامعة، وفهمها فهما يتماشى وقدراته الذهنية. فأحس الفتى بأنه أسعد الناس وأوفرهم حظا لامتلاكه فرصة الالتحاق بالجامعة والاطلاع على مختلف العلوم فيها. إذ كان يتمتع بعزيمة جبارة وطموح واسع للالتحاق بهذا البلد الغريب، واستكماله لدراسته العليا به واجتيازه الامتحانات لهدف الحصول على الدرجات العليا التي لم يتمكن لأحد من عشيرته الظفر بها من قبل. وبعد انتقاله إلى العاصمة (باريس) انجلى عنه حزنه وانصرف عنه الهم والغبن الذي كان يحياه في بلاده (مصر)، فأحس كأنه يستأنف حياتا جديدة لم يعشها من قبل « كانت حياة الفتى في باريس حلوة...ذاق فيها من نعمة النفس وراحة القلب ورضا الضمير ما لم يعرفه من قبل وما لم ينسه قط».[1] مندهشا بتلك المدينة مصورا انبهاره الكبير بمعالمها الأثرية والجمالية القيمة، مقدما لنا ما توصلت إليه هذه الحضارة من تقدم وتطور ملحوظ في شتى ميادين العلوم والآداب المتنوعة من خلال **رؤية حضارية** واضحة؛ يقارن فيها بين ما توصل إليه **الغرب** المتقدم، وبين تخلف واستكانة العقلية الشرقية الراكدة، وبحكم أنه كفيفًا فاقدًا لنعمة البصر إلا أنه استطاع أن يتخطى هذه الإعاقة خلال فترة إقامته (بفرنسا) وتلقيه للعلوم والمعارف المتنوعة، حيث استطاع أن يتعلم ويتقن اللغة الفرنسية عن طريق كتابة المكفوفين وقراءتهم؛ وهي الميزة التي لم يجدها في بلاده الشرقية التي لم يكن للمكفوفين فيها حظ في تعلم تقنية الكتابة والقراءة عكس ما هو موجود في الغرب، ما نجده واضحا في هذا المقطع

[1]- طه حسين، الأيام، ص437.

الروائي: «ليس له من بد أن يتعلم كتابة المكفوفين وقراءتهم ليستطيع أن يعتمد على نفسه في تحصيل ما يريد أن يحصل من العلم».[1]

يبرز **طه حسين** في هذه الرواية ميزة التفاوت الحضاري بين عالم **الشرق** الذي اشتهر بميزة الكبت التي تحكمها القيم والأعراف وعالم **الغرب** اذي اشتهر بميزة التحرر والانفتاح، واكتشاف المفارقات الاجتماعية من خلال «المقارنة بين الانحطاط الحضاري والرقي المدني». [2] ويتضح من هنا أن **الشرق** بعيد كل البعد عن مواكبة الرقي الحضاري والمدني الذي توصل إليه **الغرب**؛ ولا يمكن تبني هذه **الرؤية الحضارية** إلا من خلال فك شفرات الصراع الإيديولوجي والثقافي بين العالم الشرقي ونظيره الغربي في فترة استحوذ فيها **الغرب** على كل أساسيات الريادة والتحضر على حساب **الشرق**، وهو ما يتجسد في هذا القول: «عبر فهم ضمني للصراع الحضاري بين الشرق والغرب في مرحلة تشهد بلا أدنى شك تفوقا حضاريا للآخر»،[3] ومنه يجب مسايرة الركب الحضاري الغربي وتبني مبادئه لتحقيق الرقي والازدهار «فيرى طه حسين أن الغرب هو مفتاح التقدم الحضاري والازدهار العلمي والفني ومستقبل الحضارة المصرية، وذلك مع مراعاة خصوصية عادات **الشرق** وأعرافه وتقاليده وقيمه الدينية الأصلية».[4]

ب) توفيق الحكيم (عصفور من الشرق):

يقدم لنا **توفيق الحكيم** في روايته "عصفور من الشرق **رؤية حضارية** متباينة بين عالم **الشرق** المتخلف، وعالم **الغرب** المتقدم مقارنا بينهما، حيث يرى أن **الغرب** هو مثال للماديات

---

[1]- طه حسين، الأيام، ص 408.

[2]- جميل حمداوي، صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي.

[3]- جمال مباركي، المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة، مجلة قراءات، جامعة بسكرة الجزائر، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءات ومناهجها، ع5، س2013، ص113.

[4]- جميل حمداوي، صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي.

والانحطاط القيمي والأخلاقي؛ في حين يمثل **الشرق** فضاءً للروحانيات التي تعتليها القيم الدينية والأخلاقية السامية والمتأصلة في المجتمع العربي؛ فلا مجال لتغييرها واستبدالها بقيم جديدة وافدة، فالمجتمع الغربي يمجد القيم المادية ويقدسها ولا سبيل للتخلي عنها.

عقد **توفيق الحكيم** في روايته "عصفور من الشرق" مقارنة بين مقومات المجتمع الشرقي ونظيره الغربي، يبرز من خلالها التناقضات الموجودة بين المجتمعين، فتدور أحداث هذه الرواية حول حياة البطل محسن في فرنسا الذي أمعن التأمل فيها وفي معالمها فأعجب بها كثيرا؛ وأول ما لفت انتباهه في (فرنسا) هو ميدان (الكوميدي فرانسيز) ممعنا النظر في نافورة الميدان التي تتوسطه وهي زاخرة بالماء، وبعد فراغه من تأمل النافورة انتقل الفتى إلى جانب آخر من الميدان الذي يتواجد فيه تمثال الشاعر **دي موسيه** وأمعن النظر كثيرا فيما كتب على قاعدته« لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم»؛[1] فكان لهذه العبارة عظيم الأثر على نفسية البطل وهذا ما جعله يستعيد ذكريات عاشها في بلاد **الشرق** مندهشا من وجودها هي الأخرى في بلاد الغرب.

وتجلت التجربة الحضارية في رواية **توفيق الحكيم** عند دخول البطل إلى الكنيسة لحضور صلاة أحد أموات النصارى، علمًا أنه لم يشهد هذا الموقف من قبل ولا دراية له بما يجري فيها من طقوس ومراسيم؛ ما جعله يحس فيها بشيء من الرهبة والهيبة لا سابق لهما وبينما هو على هذه الحال استعاد **محسن** فكرة الخشوع الذي كان يحرك وجدانه عند تردده لأحد المساجد في القاهرة« فبيت الله هو بيت الله في كل مكان وزمان».[2] إلا أن هذا التعظيم والتبجيل لبيوت الله لا نكاد نجده إلا عند **الشرق** الإسلامي، **فالغرب** لا يولون اهتمامًا كبيرًا لهذا الجانب وهذا ما يظهر في أحد المقاطع:« أيها العصفور الشرقي!...تعد

---

[1]- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، مكتبة مصر، مصر، د.ط، د.س، ص11.

[2]- المرجع نفسه، ص16.

نفسك لدخول الكنيسة ما معنى هذا؟...إنا ندخلها كما ندخل القهوة...أي فرق؟؟».[1] وعلى هذا الأساس تتضح لنا فكرة أن المجتمع الغربي يقدس كثيرا الحياة المادية البرغماتية بكل أبعادها، فالحياة تتبني لديهم على تجسيد المصلحة الفردية لا غير، «والحضارة الغربية تقوم على أساس فصل الدين عن الحياة...لذلك كانت السعادة عند الغرب إعطاء الإنسان أكبر قسط من المتعة الجسدية، وجعله يحلق في سماء المادة والملموس على عكس الشرق الذي يرى في روحانيته السعادة وكل الخلاص».[2]

كما طرب **محسن** كثيرًا وهو يتردد مع صاحبه **أندريه** إلى قهوة الدوم بحي (مونبرناس) التي كانت عبارة عن مجمع تلتقي فيه نخبة مثقفة من فنانين ومصورين وشعراء، يتحاورون ويتجاذبون فيها أطراف الحديث، وهو ما أكسبها شهرة واسعة ومكانة مرموقة بين الناس؛ ومن الأمور التي شدت انتباه **محسن** في مدينة (باريس) نجد (دار الأوبرا) التي كان يتردد إليها لشغفه الكبير بالفن، حيث يرى فيها من الفنون ما لم يرى من قبل وسمع فيها ما لم يسمعه من قبل؛ فأحس بالكثير من الفرح والسرور والحرية وهو يتجاوب مع تلك المشاهد داخل (الأوبرا) واندهش بما رأى فيها من عظمة، وتيقن في ذلك الحين معنى فكرة الحضارة الغربية الكبرى.

شاهد **محسن** في (الأوبرا) بذخ الغربيين وغرقهم في الترف واللهو والمجون إلى درجة الكفر، متنافسين على سعة المال والغنى فيما بينهم أكثر من تذوقهم لطعم الفن والجمال، فشعر بشيء من الخجل وهو بين هذه الحشود من الطبقة الراقية الذين يرتدون اللباس الثمين والقبعات الغالية، وبين السيدات الأنيقات المتزينات بأغلى الحلي؛ وهذا ما جعل من **محسن** يحتقر نفسه ويحط من قيمتها أمام هذا الرقي الحضاري الذي شاهده داخل (الأوبرا). ومن بين الفنون الأخرى التي نالت اهتمام **محسن** في الحضارة الغربية نجد المسرح الذي لقي

---

[1]- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص22.

[2]-عماد بالوافي، جدلية الشرق والغرب في رواية عصفور من الشرق لتوفيق حكيم، ص 16.

عناية كبيرة لديهم عكس ما هو مألوف لدى **الشرق**؛ اللذين لم يخطوا خطوات كبيرة في هذا المجال، ما جعل **محسن** يقف مذهولا أمام عبقرية هذا الفن الذي لم يألفه من قبل، فأبدى إعجابًا كبيرًا لهذا الشكل وفنيته «ويتأمل تلك الأعمدة العظيمة التي يقوم عليها بناء المسرح الفخم...ولا تبرح عيناه الباب، كأنه هو باب الفردوس». [1]

وفي محطة أخرى ينقل لنا **توفيق الحكيم رؤية حضارية** للمجتمع الغربي يصور لنا فيها طبيعة العلاقات الاجتماعية والوجدانية فيما بينهم، فنجده يقدم لنا ظاهرة مألوفة عند أهل (باريس) تتمثل في عناق الحبيبين علانية غير مباليين بأي رقيب؛ عكس ما نجده في المجتمع الشرقي المسلم، الذي هو بعيد كل البعد عن هذا النوع من الممارسات التي تعتبر سلوكًا سيئًا لا أخلاقيا بل ومخلا بالحياء؛ فهي تتعارض مع القيم والأعراف والتقاليد التي يمتاز بها المجتمع العربي الروحاني. بالرغم من أن **محسن** كان منغمسا في المجتمع الغربي، إلا أنه كان رافضا لهذا النوع من الممارسات العلانية في الأرصفة والطرقات؛ فهو يرى بأن هذا النوع من العواطف لا بد لها أن تحفظ في الصدور والوجدان لا أن تكون مباشرة ومبتذلة، فقد تمسك **محسن** بشرقانيته وقيمه في هذا الجانب.

أبرز السارد في روايته "عصفور من الشرق" الجانب المشرق للحضارة الغربية من خلال العديد من الشخصيات الفاعلة في المتن الروائي، والتي أثرت فيه بشكل كبير كشخصية **أندريه** وزوجته **جرمين**؛ إضافة إلى شخصية **سوزي** التي كان لها تأثير كبير على نفسية **محسن** وتعلقه الشديد بها؛ فكل هذه الشخصيات التي احتك بها البطل من خلال معاملته لها، مثلت له الجانب الإيجابي للحضارة الغربية التي لم يكن ليكتشفها ويتعرف عليها بدونهم، فكانوا بمثابة الدليل المرشد له في مدينة (فرنسا). أما الجانب المظلم للحضارة الغربية وسلبيتها ظهر في الرواية عن طريق شخصية **إيفان** الروسي الذي تعددت لقاءاته **بمحسن** البطل، محاولا إبداء الجانب الخفي للحضارة الغربية من خلال طرح كل ما

[1]- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص57.

استلهمته هذه الحضارة من غيرها من الحضارات الأخرى خاصة حضارة **الشرق** التي تمثل له منطلق الحضارة الغربية «آسيا وإفريقيا ارتبطتا بالزواج، في طور من أطوار التاريخ، وأنتجتا مولودا جديدا: هذه الفتاة الشقراء التي تسمى أوربا جميلة ورشيقة ذكية، لكنها أنانية لا يغيبها إلا نفسها، واستبعاد غيرها...». [1]

تمثل كل من **طه حسين وتوفيق الحكيم** في أعمالهم الروائية القيم الحضارية التي يتميز بها **الغرب،** فهو بمثابة موطن الحرية والتقدم؛ إلا أنهم في آخر المطاف تفطنوا إلى شيء مهم ألا وهو مادية المجتمع الغربي الذي يختلف تماما عن قيم ومبادئ المجتمع الشرقي، ومن هنا تتضح لنا فكرة أن لكل مجتمع قيم ومبادئ خاصة به قد تتوافق مع مجتمع آخر أو تختلف عنه، فنجد أن **الغرب** شكل فضاءً مغايرًا **للشرق** «باعتباره فضاءً حضاريا مخالفا عقديا وقيميا ودينيا وأخلاقيا واجتماعيا وثقافيا عن الفضاء الشرقي الروحاني».[2] وعلى أساسه يمكن القول بأن هناك هوة كبيرة بين الحضارتين الغربية المادية والشرقية الروحانية، فالأولى حديثة والثانية قديمة؛ كما يقول **أبو الحسن الندوى**« تأمل الفرق بين الحضارتين الغربية الحديثة، والشرقية القديمة. فالأولى مادية محضة...وليس للروحانية فيها حظ، ولا لها فرصة...أما حضارتنا الإسلامية أو الشرقية بعد الإسلام فقد أشربت الإيمان وذكر الله وعظيمه...بحيث لو أخرجت الدين منها لكان جسدا بلا روح».[3] وعلى هذا الأساس نجد بأن هذه النصوص السردية تندرج ضمن **رؤية حضارية** في الرواية العربية التي تظهر علاقة **الأنا بالآخر** أو كما تعرف بجدلية **الشرق** و**الغرب،** فهي توضح لنا اللقاء الحضاري بين **الشرق والغرب** من خلال إبداعها التخيلي، وتحريك الشخصيات داخل المتون الروائية فوضحتا المفارقات الثقافية والدينية والأخلاقية والأدبية بينهما.

---

[1]- توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، ص173.

[2]- جميل حمداوي، صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي.

[3]- أبو الحسن الندوى، الحضارة الغربية الوافدة وأثرها، دار الصحوة، القاهرة، ط1، س1985، ص34.

3-الرؤية السياسية بين العرب والغرب:

من المتعارف عليه أن **الرؤية السياسية** هي تلك الرؤية التي تتبني على تحديد النظام السياسي المؤطر والموجه لشؤون دولة معينة وتشخيص طريقة الحكم فيها؛ وحصر كل العلاقات السياسية والدستورية والعسكرية المنظمة لشؤون الدولة؛ فاستطاعت الرواية العربية تبني هذا الجانب السياسي وتسليط الضوء عليه بغية كشف «الأزمة الحادة التي تواجه الحرية السياسية في وطننا العربي، من خلال رصدها لواقع تلك الأزمة وتجسيدها في أزمات أبطالها العامة والخاصة».[1] وكان هذا من أجل فك الخناق وفسح المجال أمام الحرية الفردية في الوطن العربي للخوض في أمور السياسة والحكم، من أجل إرساء مبدأ الحرية الفكرية والديمقراطية في المجتمع العربي، لهذا نجد أن **الرؤية السياسية** أصبحت عنصرا فعالا في الرواية العربية، التي لا تكاد تخلو من هذه النظرة في أي جانب من جوانبها سواءً أكان ذلك مصرح بها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن كل الفنون الأدبية النثرية تعتريها وجهة نظر سياسية بطريقة معينة فهي تحمل رسالة سياسية حضارية سطحية كانت أم باطنية خاصة الرواية منها حيث« تستند الرواية السياسية إلى بلاغة الإقناع والدعاية والتحريض والالتزام وتبليغ الأطروحة المقصودة بشتى الوسائل لأن الغاية تبررها وعضدها. كما تتبني على بلاغة التكرار لتحريك الشعور السياسي والثقافي». [2]

---

[1]- أحمد محمد عطية، الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، د.ط، د.س، ص17.

[2]- جميل حمداوي، الرواية السياسية والتخييل السياسي، مجلة دنيا الوطن، س2007، www.pulpit alwatan voice.com

تجسدت **الرؤية السياسية** بوضوح من خلال العديد من الروايات العربية التي تحمل في طياتها طبيعة الكشف عن العلاقة التي تجمع بين كل من **الشرق** المنغلق والمستَبَد وبين **الغرب** المنفتح المتحرر.

أ) عبد الرحمان منيف (رواية شرق المتوسط):

حاول الروائي **عبد الرحمان منيف** في روايته "شرق المتوسط" رصد الوضع السياسي المتدهور في المشرق العربي، مما يقوده إلى اللجوء والهروب إلى العالم الغربي من أجل البحث والسعي وراء فكرة الحرية السياسية الغربية ومقابلتها بالقمعية العربية؛ وهو ما يقدمه لنا الروائي من خلال شخصية البطل **إسماعيل** عندما قرر الهروب من وطنه الأم واللجوء إلى وطن الغرباء نتيجة ما قاساه من ظلم واحتقار وتهميش؛ إضافة إلى ما تعرض له من أشد أنواع التعذيب. وجد البطل في حضارة **الغرب** ما لم يجده في وطنه وأعجب بها كثيرا خاصتا فيما تعلق بالناحية السياسية التي كانت تمتاز بالعدالة وإرساء مبدأ الديمقراطية والمحافظة على حقوق الإنسان، على عكس ما هو موجود في دول المشرق العربي، والتي تمتاز بكل أنواع القهر والبطش والاستبداد وخنق وإجهاض كل الحريات الفردية الساعية إلى فكرة التمرد والتغيير للأنظمة السياسية، التي كان الجهل والتخلف يخيم على جميع أصعدتها وهذا ما تعرض له البطل **رجب إسماعيل** السجين السياسي من قهر واستبداد خلال فترة تواجده في سجن وطنه مصورًا لنا حالته النفسية والبدنية جراء ما تلقاه من شتى أنواع التعذيب النفسي والبدني، ما يبدوا واضحا في أحد مقاطع الرواية «كيف أن رجب حكم إحدى عشر سنة، وظل معلقا سبعة أيام بلياليها في السقف وأنه تعرض لعذاب لا يحتمله إنسان».[1] فقد تحطمت آمال وطموحات البطل **إسماعيل** واستشرافه المستقبلي لوضع سياسي أحسن إلا أن كل هذه التصورات باءت بالفشل، وكان هذا الدافع الأساسي للنقد

[1]-عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، المكتبة العالمية، بغداد، د.ط، د.س، ص53.

اللاذع الذي قدمه من أجل فضح الأنظمة العربية المستبدة، التي جعلت من الشعوب العربية تعيش في عذاب مستمر ودائم لا يشعرون فيه بطعم السعادة والحياة.

سعى الروائي إلى تقديم صورة نمطية لنا عن واقعنا العربي التعيس، المملوء بالخروقات والتناقضات المسيطرة على كل الأصعدة من خلال قصة البطل **إسماعيل** الذي لا نكاد نجد له نظيرًا يساويه في شدة البؤس والشقاء اللذان تعرض لهما في بلاده الشرقية وما أكثرها الحالات التي تعيش وتكابد نفس المصير الذي تعرض له البطل في هذا الوطن الشرقي؛ ومن خلال هذا المنطلق سعى الروائي جاهدا ليرسم لنا سورة أزلية خالدة يبين لنا فيها موقف ووجهة نظر هذا الإنسان المقهور الذي سلبت كل حرياته لإبداء آراءه وتصوراته للجانب السياسي، لتصبح هذه القصة فيما بعد حديث العام والخاص يتناقلها الناس فيما بينهم دون أن يستشعروا أو يعرفوا درجة المعاناة والظلم التي يكابدها هذا الإنسان في صمت شديد وهو داخل السجن؛ لينتقل الروائي بعد ذلك ويرصد لنا أماكن أخرى كابدت هذا الجحيم الذي تزامن مع غياب البطل الروائي وهو في السجن التي تتمثل أساسا في أسرته التي كانت تتجرع مرارة فقدانه يوما بعد يوم وتتعاطف معه بأسف شديد، فقد أثر عليهم هذا الفقدان كثيرا إلى درجة أن قضيته أصبحت شغلهم الشاغل وحديثهم اليومي، وهذا ما يبدو جليا في هذا القول: «حلمت أول أمس أنك خرجت من السجن...لم تخرج ماشيا، خرجت على نقالة إسعاف، تصور يا أخي أني لم أستطع أن أتذوق طعاما منذ أول أمس وطول الوقت أبكي».[1]

يظهر لنا **عبد الرحمان منيف** في هذه الرواية جانب آخر يتصل بقصة **رجب إسماعيل** الذي مرت حياته بمراحل جهادية عظيمة خلال فترة تواجده بالسجن تبرز التناقضات العديدة التي مر بها هذا الأخير؛ الذي يسعى جاهدا للخروج من السجن فكان هذا هو الدافع الأساسي وراء توقيع **رجب** على ورقة يتعهد فيها بعدم الخوض والنشاط في العمل

[1]-عبد الرحمان منيف، الشرق المتوسط، ص29.

السياسي من جديد مقابل فك صراحه والإفراج عنه، ليخرج من السجن ويتمكن من السفر إلى الخارج (**الغرب**) لهدف العلاج وتنص هذه المعاهدة على: «أن تسمحوا لي بالموافقة على السفر للعلاج في الخارج بناءً على توصية الطبيب لأن مسؤولية موتي في السجن تقع عليكم، وأتعهد أن أتوقف عن أي نشاط سياسي».[1] إلا أن هذه الوثيقة في حقيقة الأمر لم تكن سوى انتحارًا نفسيا يتخلى فيها عن كل مبادئه وقيمه التي كان يحلم بالكتابة عنها؛ لكن الدافع الأساسي وراء توقيع رجب تلك الوثيقة هو الخروج من ذلك المكان المقرف ليجد مكانا آخر فسيح ينعم فيه بكل الحرية والطمأنينة، ليعود من خلاله إلى مجال الكتابة من جديد عن كل شيء لم يكن يملك الجرأة للبوح به وهو وسط ذلك القمع والاستبداد، فكانت الكلمة هي السبب الأول والأخير وراء هذا القرار الذي اتخذه **إسماعيل**؛ ومن أجلها سافر إلى مكان بعيد عن وطنه لعله يجد في هذا المكان متنفسا يمكنه من البوح بكل الكلمات التي لا طالما حلم بأن يتلفظ بها خلال فترة تواجده في السجن.

ومن جهة أخرى يصور لنا الروائي حالة البطل **إسماعيل** خلال فترة تواجده في **الغرب**، وعلى وجه التحديد فرنسا التي سافر إليها بغية الهروب من الواقع المرير واستعادة نفسيته وعلاجها من مخلفات التعذيب، كان يبحث عن حياة جديدة يستعيد فيها ذاتيته الحرة؛ فالسياسة في هذا الوطن تختلف تماما عن السياسة المتعارف عليها في **الشرق** العربي. فهي تمتاز بنوع من الحرية في الممارسة والتوجه السياسي المستقل فليس هناك سلطة قمعية استبدادية تفرض على الأفراد حضر الممارسة السياسية؛ عكس ما هو موجود في الشرق العربي الذي يقوم بإجهاض وقتل أي محاولة تخوض في هذا الجانب، فالأحزاب السياسية في (باريس) «لها مراكز مكتوب عليها الأسماء بوضوح، يدخلها الناس بدون خوف ويدخلون دون أن ينظروا وراءهم، ويتكلمون في الشارع وبصوت عال...أما الجرائد فهي تنشر كل

[1]-عبد الرحمان منيف، الشرق المتوسط، ص141.

شيء...الأفكار وحوادث القتل...والناس يقرأون».[1] فأعجب البطل كثيرًا بهذا الوطن خاصة مما يتمتع به أفراده من حرية مطلقة للخوض في كل جوانب الحياة دون أي قيد أو مانع يتحكم في حريتهم الفردية؛ كما لاح انتباهه تصرفات الناس وضحكاتهم بينما هو يتجول في شوارع (باريس) و(مرسيليا)، فأحس كأنه عاد ولد من جديد وهو يشاهد فيهم مقارنا بين مرارة ما كان يتجرعه في وطنه الأم قائلا: «آه يا أهل باريس، لو جئتم إلى شاطئ المتوسط الشرقي، لقضيتم حياتكم كلها في السجون سيأكلكم الندم، سوف تكفرون بكل شيء، واحذروا أكثر أن تفكروا بالأحزاب السياسية، لأن أي كلمة تجد من يلتقطها وجعلها مؤامرة وتخريبا وتدفعون ثمن حياتكم في السجون الصحراوية، وهناك تصابون بالسل والتيفوس وتموتون».[2] فهو يبدي لا في هذا المقام مرارة ما يتجرعه الإنسان العربي من قهر وتعذيب إذا حاول الخوض في الأمور السياسية.

ب) صنع الله إبراهيم (رواية نجمة أغسطس):

وتظهر **الرؤية السياسية** من خلال رواية "نجمة أغسطس" للروائي المصري **صنع الله إبراهيم** الذي عقد مقارنة يبرز فيها جدلية **الأنا بالآخر** من خلال مقابلة الإنسان الشرقي الذي يعيش كل أنواع الفقر والتهميش والقمع السياسي، بنظيره الغربي الذي يتمتع السلطة والغنى والتحرر السياسي، وإبراز الهوة الشاسعة بين العالمين؛ حيث ينقل لنا الروائي اللقطات المهمة في حياته، ويفتتح بها روايته الشهيرة "نجمة أغسطس" مصورا لنا فيها مواقف عديدة تعرض لها في مسيرته، ومن أشهرها محنة اعتقاله بسبب توجهه السياسي المعارض، التي قاس فيها شتى أنواع التعذيب والتنكيل داخل الزنزانة المظلمة والباردة التي كان محروما فيها من أبسط ضروريات العيش كما يظهر في هذا المقطع «ثم يتتابع صوت المفتاح وهو يدور

[1]-عبد الرحمان منيف، الشرق المتوسط، ص155.

[2]-المرجع نفسه، ص155.

في أقفال الزنازين، يحبس في كل زنزانة جانبا من ضجة العنبر حتى يسود الهدوء التام ونجلس على الأرض مستندين بظهورنا إلى الجدران المثلجة».[1]

صور لنا الروائي **صنع الله إبراهيم** في ثنايا الرواية مشهد رحلة البطل إلى مدينة (أسوان) التي انتقل إليها لغرض مشاهدة خطوات تشييد المشروع الضخم، الذي كان بمثابة حدث عظيم تناولته الأخبار والصحف في (مصر) آنذاك، فكان للبطل رغبة كبيرة أن يشاهد هذا الإنجاز؛ إلا أنه خلال هذه الرحلة التي انتقل فيها إلى المدينة تعرض للعديد من المتاعب والعراقيل التي أثرت عليه كثيرا فأحس بشعور الفشل والخيبة فلم يستطع توفير مسكن أو غرفة يقيم بها في هذا المكان الجديد، إضافة عدم توفر وسائل النقل التي تربط بين مكان إقامته والمنطقة التي يتم فيها تشييد السّد فيقول:« سرت إلى ميدان المحطة فلم أجد أتوبيسا واحد، وقال لي الناظر في تجهم أنه لا توجد سيارات الأن إلى الموقع»؛[2] كما نقل لنا الروائي مشهد انتشار وباء خطير في تلك الفترة، الذي أودى بحياة العديد من الأرواح خاصة فئة العمال المصريين الذين يفتقرون للعناية والرعاية الصحية على عكس ما كان يتمتع به العمال الروسيين الذين كانت توفر لهم عناية صحية شديدة. لكن لم تكن في تلك الفترة إمكانية الحديث عن هذا الوباء القاتل الذي حصد العديد من الأرواح كما يتضح في أحد مقاطع الرواية: «استيقظت في الصباح على صوت فقير وسمعته يقول أن الموتى يتساقطون في كل مكان». [3]

ومن جهة أخرى يوضح لنا الروائي من خلال رحلة عمله الصحفي به هو وزميله عن مشروع بناء السد ليظهر المفارقات البارزة التي تكشف عن حقيقة بؤس المصريين فلم يكن هنالك حرية مطلقة للتحدث عن هذه الأمور في وسائل الإعلام والصحافة المصرية آنذاك

---

[1]- صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس، دار الفارابي، بيروت، ط3، س1980، ص39.

[2]- المرجع نفسه، ص24.

[3]-المرجع نفسه، ص100.

وهذا بسبب النظام المتسلط الذي يقمع ويرفض أي محاولة للكشف عن حقيقة الأوضاع المزرية التي يتخبط فيها المجتمع؛ فهو يهدف دائما إلى التغليط السياسي والتحكم في الأوضاع من أجل تحقيق مصالح شخصية باسم النظام، وكانت أي محاولة تهدف للخروج عن الأطر والقواعد التي يسطرها نظام الحكم تعتبر محاولة تمرد وتشويش على مبادئ النظام مما يؤدي بصاحبها إلى التعرض للسجن وفقدان الوظيفة، وهذا ما توضحه هذه المقولة: «قالت بنفس الصوت المرتفع؛ كانت حضرته يضع خطوطا حمراء تحت سطور مقال كتبه الأستاذ سعيد، ثم بعث به إلى المباحث».[1] فقد كانت مهمة النظام الوحيدة هي تلطيف الأوضاع السائدة وتكييفها وفق ما يتماشى مع أسس نظام الحكم، فلم تكن هناك شجاعة كبيرة في هذه الفترة أو حرية متسامحة من أجل الخوض في موضوع الحكم مثلا أو الأطر السياسية. وهذا ما يتميز به **الشرق** العربي.

وفي مشهد آخر صور لنا **صنع الله إبراهيم** ما آل إليه حال العمال من فقر وحرمان شديدين جراء الراتب الزهيد الذي يتلقونه نتيجة الأعمال التي يقومون بها، إلا أن هذا المبلغ المالي لم يكن يكفيهم حتى لتوفير أبسط ضروريات العيش من مأكل وملبس «وصاح العمال نحن نموت جوعا... لقد جئنا يدفعنا الجوع والعطش ولم تعد لدينا ملابس نرتديها ولم يبق لنا زيت ولا سمك ولا خضر». [2]

وفي مشهد آخر قدم لنا الروائي نظرة مغايرة عن المجتمع الشرقي، يصور فيها المجتمع الغربي، على وجه الخصوص المجتمع الروسي، أنهم أناس متحضرون ومنظمون غاية التنظيم فلا مجال عندهم للعبث والسخرية، كما أنهم حريصون أشد الحرص على الدقة في أعمالهم ومهنهم المتنوعة، فهم أصحاب مكانة وراقية لما وصلوا إليه من تقدم ورقي كبيرين على مختلف الأصعدة والميادين المتباينة كما يظهر في هذا المقطع: «العمال الروس

---

[1]- صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس ص87.

[2]- المرجع نفسه، ص100.

مذهلون، رأيت مرة واحدا منهم عندما إنهار النفق الثاني، كلنا جرينا وتركنا آلاتنا خلفنا، أما هو فرفض أن يتحرك بدون الحفارة التي كان يسوقها»؛[1] عكس عمال المجتمع الشرقي الذين تغيب لديهم روح المسؤولية والتفاني في العمل الذي يوكل إليهم، فهم لا يؤدونها على الوجه الذي يستوجب أن يكون عليه، فهم يقومون به بسخرية واستهزاء وكأن الأمر لا يعنيهم؛ على عكس ما نجده تماما عند العمال الروس الذين يلتزمون بالجد والصرامة، فهم منظمون في حياتهم بشكل دقيق لا مجال فيه للتقصير أو التهاون، ولا يمزجون بين الجد والهزل في عملهم فوقت العمل لديهم مقدس، فهم يعطونه بالغ الأهمية؛ والروسيون يملكون وقتا للراحة والاستجمام، ما يفتقر إليه المجتمع الشرقي الذي لا يفرق بين صرامة العمل وبين أوقات والترفيه، «إن الروس في بلادهم يسكرون بشدة لكنهم يعملون على الأقل أضعاف ما نعمل، وأهم ميزة لديهم هي الصبر، أما نحن فكسالى لا صبر لدينا نريد أن نحصل على كل شيء دون مجهود وبالفكاكة».[2] إلى جانب هذا يبين لنا **صنع الله إبراهيم** تواضع العمال الروس الذين لا يترفعون مطلقا عن أي شيء يوكل إليهم بغض النظر عن مركزهم أو مكانتهم في المجتمع، على عكس ما نجده في مجتمعنا العربي الذي يرفض القيام بأبسط الأعمال لأنه يرى بأنها تورث شيئا من المذلة والاحتقار مقارنة بمكانتهم في المجتمع.

إضافة إلى هذه الأمور التي ذكرناها سابقا نجد أن الروائي قد عرج في هذه الرواية إلى تداعيات أخرى يصور لنا فيها بعض المواقف السياسية لمناسبات وحقب زمنية متنوعة مبرزا فيها أسماء بعض الرموز التاريخية والفنية، كاستدعائه لشخصية **رمسيس الثاني** الذي يصوره كأحد أبطال الرواية الذي استعاد قصته من جديد مبرزا فيها الحملات المختلفة التي قام بها ووصف طريقة حكمه في تلك الفترة، كما توالت استدعاءات كثيرة على ذهن بطل

[1]- صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس، ص42.

[2]- المرجع نفسه، ص142.

الرواية من طفولته وصباه إلى مشاهد فترة اعتقاله ودخوله السجن، وهي إشارات واضحة لواقع الاستبداد الذي غطى العالم العربي آنذاك.

من خلال دراستنا لهاتين الروايتين "الشرق المتوسط" **لعبد الرحمان منيف** و"نجمة أغسطس" **لصنع الله إبراهيم**، يمكننا أن نخلص إلى القول بأنهما جسدتا **الرؤية السياسية** في الرواية العربية بجدارة، في تلك الفترة ومقارنتها بالأوضاع السياسية السائدة لدى **الغرب**، فقد كان لهما فضل كبير في تسليط الضوء على هذا الجانب الذي ظل مسكوتا عنه لفترات طويلة وإبرازه للعيان في قالب روائي متميز، يمكن القارئ من كشف وفهم العديد من الأمور المتستر عليها من قبل النظام الحاكم، والتي تعد بمثابة خطوط حمراء لا يمكن الخوض فيها أو تخطيها، وكانت آرائهما في هذا الجانب سببا أساسيا لتعرضهما لمحنة السجن والاعتقال وتعتبر هذه المرحلة قاسية جدا لما تعرضا له فيها من أنواع التعذيب اللفظي والجسدي، وهذا ما ترك أثرا بالغا في نفسيتهما وكان سببا في تفجير قريحتهم وإبداعهم الفني فيما بعد، إلا أن أهم القضايا التي شغلت بال هذين الروائيين في أعمالهما هي أزمة الحرية في الوطن العربي.

إن القضايا السياسية في وطننا العربي لم تكن تلقى شيئا من الحرية أو الطلاقة للخوض فيها أو الحديث عن نظام الحكم وطرق سيره، فقد تمكنت الرواية العربية من التعبير عن أهم هذه القضايا والأزمات والطموحات السياسية التي تتصارع داخل الضمير العربي، حيث لم يكن هناك سبيل لتناولها بحرية كاملة وتصريحات مباشرة، فقد تمكنت الرواية العربية من إبراز العديد من الأمور والجوانب السياسية المسكوت عنها كقضية العدالة الاجتماعية مثلا نتيجة لما كان يطرأ في الوطن العربي من تفاوت طبقي ومحسوبية بين أفراد المجتمع الواحد داخل الدولة الواحدة.

كما يمكننا الحديث عن الصلة الوثيقة التي تجمع بين فن الرواية كأدب من جهة وعلاقته بالأطر والنظم السياسية من جهة أخرى، فالعلاقة جد وثيقة بين الأدب والسياسة وبهذا يمكننا «إبراز الأدب كأداة من أدوات التغيير السياسي والاجتماعي ورفض كل محاولة عزل الأدب عن السياسة لأن هذا طريق عزل الأدب عن دوره في إنارة وعي الجماهير بحقيقة أوضاعها السياسية والاجتماعية»؛ [1] ليكون الأدب وفقًا لهذا المنظور عاملًا أساسيًا لتوعية الأفراد والمجتمع وتفعليهم مع الواقع السياسي المحيط بهم، ليكون الأدب علملا من عوامل التثقيف السياسي.

4-الرؤية العدوانية تجاه الآخر:

تشكل **الرؤية العدوانية** في أساسها تلك النظرة التي تبنتها **الأنا** الشرقية ضد **الآخر** الغربي، فهي تمثل نظرة مضادة ومخالفة للغير الذي يسعى جاهدًا إلى إقصاء الذات العربية وتهميشها والتقليل من شأنها، إضافة إلى احتقارها وسحقها وتدميرها، وهذا ما يولده الصدام بين **الشرق والغرب** ليصبح كل منهما يسعى إلى إبراز ذاته على حساب **الآخر** وتتحول العلاقة بينهما إى علاقة صدام وتنافر؛ فبعدما كانت العلاقة بينهما تتسم في فترتها الأولى بفكرة التعايش والوئام، تغيرت جذريا بعدها إلى فكرة الصراع والعدوان فتمخضت عنها هذه العلاقة العدائية والنظرة السلبية التي أصبحت مغروسة فيها؛ وعلى هذا الأساس ظهر الحقد العدواني المتجذر في وجدان **الأنا** الشرقية لسبب محاولة **الآخر** طمس هويتها وسلخها عنها وبهذا نجد أن العلاقة بين **الأنا والآخر** لا تكون إيجابية في المعاملة دائما وتسودها فكرة المحبة والتعايش السلمي؛ بل يمكن أن تكون علاقة سلبية حادة تسودها فكرة العنف والكراهية والعدوان الأزلي على نحو ما نجده قائما في العديد من الروايات العربية التي جسدت هذه **الرؤية العدوانية** بجدارة.

---

[1]-أحمد محمد عطية، الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، ص12.

أ) الصراع الحضاري بين الأنا العربية والآخر الإسرائيلي (الرحلة الأصعب لفدوى طوقان):

تقدم لنا الروائية **فدوي طوقان** في روايتها "الرحلة الأصعب" نظرة تشاؤمية تجاه **الآخر** الغربي، مصورتا لنا فيها مختلف المحطات المأساوية التي كان لها عظيم الأثر على حياتها الشخصية والوطن العربيح فقد رصدت لنا مواقف يختلط فيها التاريخ بالأدب معتمدتًا فيها على التوثيق المرجعي للأحداث من منظور فني وأدبي يظهر بشاعة الاحتلال وفظاعته حيث مثلت رواية "الرحلة الأصعب" «خير نص أدبي وثائقي يعكس ما عرفته الأمة العربية بصفة عامة وفلسطين بصفة خاصة من نكسات متكررة ونكبات تراجيدية في ظل الانتداب البريطاني والاحتلال الصهيوني».[1] وأول موقف تحدثت عنه **فدوى طوقان** في روايتها هو رفضها القاطع للمستعمر الصهيوني، وتمسكها بروح المقاومة والنضال للدفاع عن وطنها الأم، فبالرغم من أنها حظيت بفرصة الخروج من ذلك الوضع وتفادي الحرب وويلاتها؛ إلا أنها رفضت هذا الاقتراح وتمسكت بفكرة الصمود والتحدي أمام هذه الحرب القادمة، ومنه نستنتج موقف البطلة وشجاعتها وتمسكها بوطنها وعدم التخلي عنه في أي حال من الأحوال؛ فتقول في بداية الرواية: «اقترح علي المغادرة إلى عمان أو بيروت فالحرب وشيكة الوقوع وهذا شيء مؤكد، ولكني أعلنت رفضي القاطع لفكرة الهرب».[2] وبهذا شكلت فكرة الحرب والصراع دافعًا أساسيًا في تفجير ملكة الخلق والإبداع لديها، وهو ما نتلمسه في هذا النص الإبداعي الذي قدمته لنا، وكانت تشعر بتجربة الحرب التي زرعت فيها فكرة الرعب والخوف من المصير المجهول، خاصة وأن فترة هذه الحرب كانت على أشدها بين **العرب واليهود**، بالنظر لما ألحقته من خسائر بشرية ومادية؛ ما ولد في النفوس العربية شيئا من

---

[1]- جميل حمداوي، الرحلة الأصعب لفدوى طوقان سيرة الأدب والمقاومة والصمود، ديوان العرب، س2007، www.diwanalarab.com.

[2]- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، دار الشروق، عمان الأردن، ط1، س1993، ص7.

الكره والحقد الدفين لهذا المستعمر الصهيوني الجائر الذي سعى بشتى الطرق والوسائل إلى ضرب وطمس كل معالم هوية المجتمع العربي وجعله مقاطعة تابعة وخادمة لمصالحه الشخصية، الأمر الذي لم يستسغه المجتمع العربي عامة والشعب الفلسطيني خاصة، حيث أبدى مقاومة شرسة ضد هذا العدو الغاشم المنتهك للأرواح والممتلكات، فتقول الروائية في أحد مقاطع الرواية: «كان بعض شباب الجيرة الشجعان في حارة الياسمينة يستهويهم الصعود إلى الأسطحة وإطلاق النار باتجاه الطائرتين المغيرتين، حيث يصبح تحليقها على علو قريب. ذات يوم أصابت إحدى الرصاصات الهدف فعادت الطائرة أدراجها للتو». [1]

قدمت لنا الروائية **فدوى طوقان** في ثنايا روايتها نظرة عدوانية ورؤية سلبية تبرز لنا من خلالها جدلية الصراع الوجودي والحضاري بين **الأنا** العربية (فلسطين) و**الآخر** الغربي (إسرائيل). ومن خلالها يمكننا رصد موقفها الرافض لأي تعامل أو وساطة مع هذا **الآخر** الذي هو منبوذ وحقير بالنسبة لها فنراها لا تولي أي اهتمام له، ولا يمكنها أن تتواصل معه أو تتصل به بأي شكل من الأشكال نتيجة لما خلفه هذا المستعمر الغاشم من خلال احتلاله البشع للمدن الفلسطينية وممارسته لطرق التعذيب والتنكيل والقمع ضد هذا الشعب الفلسطيني الأعزل والمقهور على كافة الأصعدة، فلا حول له ولا قوة في مجابهة ومقابلة ذلك العدو الذي يفوقه عدة وعتادا فهو متفوق عليه على مستوى كافة الأصعدة. الشيء الذي جعل كفة الصراع بينهما غير متوازنة كما يظهر في هذا القول: «ها هي دماؤنا تقطر من حدي السكين الطعنة المباغتة، الواقع الجديد الذي يصيبنا بالشلل والذهول، أرواحنا تضرب تحت الممارسات القمعية». [2]

تثبت لنا الروائية من خلال سردها مشاهد عدة تظهر فيها جبروت جيش العدو ضد الأهالي الفلسطينية ملقيا الرعب في نفوسهم من خلال حملاته التفتيشية المباغتة للبيوت

---

[1]- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، ص8.

[2]- المرجع نفسه، ص15.

باحثا عن السلاح وحامليه وعن الثوار المقاومين بين السكان، فكانت كلها مشاهد مرعبة بثت في نفوس الأسر والعائلات الفلسطينية الخوف والقلق الدائمين؛ فهم في حالة لا استقرار جراء هذه الحملات، فكانت النساء وهي تحتضن الأطفال الصغار المرتعشين والمذعورين من منظر هؤلاء الجنود المدججين بالأسلحة، المستعدين لإطلاق النار عليهم في أي لحظة من اللحظات. وبفضل هذه المشاهد المرعبة والقاسية في نفوس هؤلاء الأطفال، التي استقرت في مخيلتهم ونمّت فيهم روح الحقد والكراهية لهذا **الآخر** الحقود، لتبرز فيما بعد مقاومة ثورية ضد جنود الاحتلال الصهيوني بكل ما جاءت به تلك الثورة من قوة، نظمها هؤلاء الأطفال المعروفين بأطفال الحجارة.

تبرز النظرة العدوانية عند **فدوى طوقان** من خلال نبرتها السردية الحادة، فالقارئ لها يفهم من أول وهلة موقفها السلبي نحو **الآخر** الذي كانت تكن له العداء الشديد فتصرح بقولها: «كان مجرد تصوري للواقع المتجسد بوجود الإسرائيليين ودباباتهم وانصاف منجزاتهم يهز كياني ويعطل قدرتي على الحركة».[1] وتدعم الروائية موقفها الرافض بواسطة العديد من الشخصيات التاريخية التي شكلت رموزا وطنية تجسد روح المقاومة والصمود والرفض القاطع لهذا الوافد الجديد المتطفل على أرضهم؛ وتمسكوا بفكرة المحافظة على الهوية القومية وسط هذا الصدام الرهيب والواقع المرير الذي يهدد مصير الأمة العربية بالاندثار والفناء، كشخصية **توفيق فياض** و**سالم جبران** إضافة إلى **محمود درويش**... الذين ساهموا بشكل فعال في شد الهمم وحشد الجماهير وبث روح القوة والحماسة فيهم ونبذ فكرة الهوان والضعف والانهيار أمام هذا الواقع، فأناروا دروب الكفاح والمقاومة وبثوا شرارة الحماس الوطنية والروح القومية في العالم العربي مستشرفين ومبشرين بعظمة الانتصار على العدو وزرعوا فيهم الإحساس بقوة الانتماء لهذا الوطن وأن جذورهم الفلسطينية لا تزال تنبض في هذه الأرض المغتصبة عنوة؛ والتي أصبحت أسيرة في هذا الوقت على أيدي غرباء لا جذور لهم فيها ولا

---

[1]- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، ص16.

أصول، يتحكمون في مصير السكان الأصليين فكانوا خير شاهد يعرف بالقضية الفلسطينية في مختلف المناسبات والمحافل الدولية عن طريق إبداعاتهم الفنية المتنوعة «هؤلاء الكتاب والشعراء الذين كانت السياسة والانتماء الحزبي عملهم من أجل الحياة ومن أجل الوطن ومن أجل الإنسان».[1] فشكلوا بهذا بداية حركة التفاعل الإيجابي بين أفراد الأمة الواحدة من خلال الحرص الشديد على استمرارية المحافظة على فكرة التلاحم والانسجام بين الكتاب والأدباء العرب، المهتمين بمصير القضية الفلسطينية على الرغم من الحرس الشديد لسلطات الاحتلال في زرع حواجز تعرقل وتكبح حركة نشوء أي تفاعل فكري أو أدبي بين أبناء الأمة العربية والشعب الفلسطيني الموحد، من خلال منع الأدباء الفلسطينيين من المشاركة في العديد من المناسبات الأدبية والوطنية سواء أكان داخل القطاع أو خارجه فشددوا الخناق عليهم كما يتضح في هذا القول: «بالرغم من اصطدام الأقلام ومحاولة خنق الأنفاس والسجون والمعتقلات وكل ما من شأنه إجماد الوعي الجديد المنبثق من رماد الهزيمة».[2]

أبدت الروائية موقفها العدائي اتجاه الأخر في مواطن عدة من الرواية توضح لنا من خلالها مقاطعتها ورفضها لهذا الوافد الجديد، فنجدها تشيد كثيرا بفكرة التمسك بالوطن والهوية العربية عن طريق توعية النفوس وإيقاظها من سباتها العميق، لتبدأ بعد ذلك مرحلة الجد والرفض الحقيقي لهذا الواقع المرير الذي أنهك كاهل الفلسطينيين. فتتأجج النفوس بروح المقاومة والتضحية في سبيل استعادة السيادة الوطنية والتصدي لواقع هذه التحديات الصعبة «وهذا بغض النظر عن كون رفض الاحتلال ومقاومته هو شعور طبيعي لدى أفراد شعب فقد حريته واستقلاله وكرامته»، [3] من أجل تفعيل دور الدعوة إلى تغيير هذا الواقع الكئيب المفروض عليهم.

---

[1]- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، ص21.

[2]- المرجع نفسه، ص25.

[3]- المرجع نفسه، ص35.

تشكلت الصورة العدائية المشوهة **للآخر** عند العرب نتيجة لمواجهتهم الصعبة في أزمة التعامل معه فأسندت له كل الصفات العنصرية والاستبدادية، إلى درجة وصفه كوحش قاتل يسعى إلى سحق كل معالم الهوية العربية بشتى الوسائل والطرق فلم يكن للعرب من وسيلة للوقوف في وجه هذا الوحش المغتصب، سوى التضحية بحياتهم من أجل الدفاع واستعادة الوطن فسعوا إلى «الخلاص والحرية وانتزاع الوطن من فم الحوت».[1] فانتشر الصوت الرافض كأهم حدث تاريخي في الذاكرة الفلسطينية يخلد فكرة الصراع العربي الإسرائيلي من أجل استعادة الحرية والكرامة المستلبة، وتخليص الإنسان العربي من الظلم والقمع الذي ألحقه به **الآخر**؛ فتوحدت صفوف المجتمع العربي لتحديد مصيرها، فكانت «هذه المشاركة التي تنشأ عادة على مواجهة المخاطر التي يحسها الناس من العدوان الخارجي الذي يقوم به العدو المشترك».[2] فسعى **الآخر** المحتل جاهدا ليؤكد لنفسه وللعالم فكرة حق شرعيته في الانتساب لهذه الأرض التي في حقيقة الأمر لا تربطه بها أية صلة، وهو الأمر الذي لم تقبله الأنا العربية رافضة الخضوع لشراسة هذا الاحتلال الغاشم الذي كان سببا في توليد شرخ عميق في طبيعة العلاقة بين **الأنا** الشرقية **والآخر** الغربي «والحقيقة الأساسية هي أن هذا الاحتلال يريد أن يبقى بأشكال مختلفة، وإننا بالتالي لا نجد أمامنا سوى مهمة وحيدة، هي طرده وإجباره على الجلاء».[3]

ب) *موقف الأنا العدائي تجاه الآخر الصهيوني (غسان كنفاني)*:

تستمر **الأنا** الفلسطينية بالتمسك بموقفها العدائي **للآخر** المحتل من خلال إعلائها لشأن الذات ونبذها **للآخر** وتحقيره كونه شكل سببا أساسيا في ضياع **الأنا**؛ ويعتبر **غسان كنفاني** من بين الروائيين الذين سعو للكشف عن هذه العلاقة العدائية مع **الآخر** عن طريق

---

[1]- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، ص148.

[2]- المرجع نفسه، ص168.

[3]- إلياس خوري، زمن الاحتلال، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، س1985، ص49.

أعماله الأدبية المتنوعة فقد صرح «غسان كنفاني في أحد رسائله" لقد اخترت...ألا أكون متفرجا، وهذا يعني أني اخترت أن أعيش لحظات حاسمة من تاريخنا كانت قصيرة..." لهذا كان فعلا ملتحما بقضيته حتى الشهادة».[1] فيصور في هذه الأعمال طبيعة الصراع مع **الآخر** «كروايته الملحمية أم السعد التي تدور أحداثها في أحد مخيمات البؤس، وما أم سعد إلا صوت الشعب الفلسطيني وجماهيره الغارقة في الفقر والعجز والانكسار».[2] فللمخيم حضور وافر في إبداع **الكنفاني** حيث يعكس لنا تجليات روح المقاومة الفلسطينية، وينظم وتيرة المقاومة الوطنية، حيث يمثل موطن الرفض والقوة من خلال حشده للجموع الرافضة لهذا الواقع المرير الذي تتخبط فيه **الأنا** الفلسطينية فنمّ فيهم الحس الوطني وروح المقاومة ورفض فكرة الاستسلام والانصياع لأوامر **الآخر**، ولا مجال فيه للذل والهوان؛ كما يوضح لنا الروائي هذه **الرؤية العدائية** من خلال موقف المساجين اللذين رفضوا التوقيع على الوثيقة التي قدمها لهم المختار العميل لمصلحة العدو على حساب أبناء وطنه مستهزئين به ومحتقرين له كثيرا «حين سألهم المختار إن كانوا يريدون شيئا من المخيم، فقال له سعد: "سلم عالأهل يا بني" فزعل لأنه أكبر من مسعد من جيل أبيه».[3]

تمكن **غسان كنفاني** من خلال صياغته الفنية لروايته أن يلخص لنا كل الوجع والألم الذي كابده المجتمع الفلسطيني وهو يصارع مرارة الاحتلال الصهيوني، فنقل لنا هذا الواقع بصدق وعفوية بدون أي مزايدة أو تغليط فنجده «يتغلغل إلى عمق التجربة الإنسانية من دون أن يفقد طابعه الفلسطيني الخاص». [4] فعمد إلى إبراز موقفه الملتزم بهذه القضية مؤكدا على ضرورة تلاحمه مع أبناء هذا الوطن الذي عاش فيه. كما يصور لنا في روايته "عائد إلى حيفا" تأزم طبيعة الحوار بين **الأنا** الفلسطينية المستعمرة و**الآخر** اليهودي المحتل

---

[1]- ماجدة حمود، علاقة النقد بالإبداع الأدبي، وزارة الثقافة، دمشق، س1997، ص181.

[2]- صحيفة الاتحاد، الملحق الثقافي، أم سعد خزان الثورة، س2012، www.alittihad.ae

[3]- غسان كنفاني، أم سعد، منشورات الرمال، قبرص، د.ط، س2013، ص17.

[4]- صحيفة الاتحاد، أم سعد خزان الثورة، س.2012

جراء العدوان العنيف الذي تعرضت له مدينة (حيفا)، الذي سبب حالة استنفار وهلع كبيرين بين العائلات الفلسطينية التي تقطن في شوارع تلك المدينة جراء هذا القصف الوحشي الذي تسبب فيه الاحتلال متنكرا فيه من أبسط صفات الإنسانية؛ فشدد العدو الخناق على كل مداخل ومخارج المدينة وشوارعها الرئيسية ما لم يُمَكن الشعب الفلسطيني الأعزل من إيجاد معابر يفرون منها من وحشية اليهود، فيقول في هذا الصدد: «كان المساء قد بدأ يخيم على المدينة، ليس يدري كم من الساعات أمضى وهو يركض في شوارعها، مرتدا من شارع إلى شارع، أما الآن فقد بات واضحا أنهم يدفعونه نحو الميناء فقد كانت الأزقة المتفرعة عن الشارع الرئيسي مغلقة تماما».[1] ومن خلال هذه المشاهد تتأكد لدى **الأنا** استحالة إمكانية الحوار والتواصل مع **الآخر** نتيجة لما ألحقه بها هذا الأخير(المستعمِر) من هلع باعتباره المسؤول الأول عن الخوف والقلق الشديد الذي كانت تعيشه **الأنا** الفلسطينية دائما، وهو الأمر الذي لم يستسغه الفلسطينيين وأكدوا على فكرة محاربة سياسة القمع والاضطهاد التي يمارسها **الآخر** العنصري للسيطرة على البلاد، فاشتدت نظرة الصراع بين **الشرق والغرب** منذ وطأت أقدام الغزاة أرض الوطن، كما« أسهمت الذاكرة ومرجعياتها الثقافية المتأصلة بالوطن وأهله في زيادة هذا الإحساس بالانفصال عن الآخر والشرود عنه...وهذا ما جعله فريسة التصارع بين ذاته ووطنه وتاريخه وبين الآخر بجبروته وتسلطه».[2] فلا بد **للأنا** من مواجهة هذه التحديات من أجل إبراز ذاتيتها لامتلاك درجة عالية من الوعي تمكنها من تحديد العلاقة التي ينبغي إتباعها في التعامل **الآخر**، لتبقى درجة الوعي هي العامل الأول والأخير الذي يمكن **الأنا** الشرقية من ضبطها لأليات التعامل والتفاعل مع **الآخر** الغربي الذي يختلف عنها دينيا وقيميا وعرفيا واجتماعيا. هذا ما أكده الأستاذ **علي بن إبراهيم النملة** في كتابه "الشرق والغرب" الذي تحدث فيه عن طبيعة العلاقة الرابطة بين **الشرق والغرب** والتي حددها

---

[1]- غسان كنفاني، عائد إلى حيفا، منشورات الرمال، قبرص، ط2013، س2015، ص14.

[2]- نادية هناوي سعدون، سردية الأخر في تجسيد استلاب الذات قراءة نقدية في رواية التجذيف في الوحل مجلة دراسات، اللغة العربية وآدابها، قضية محكمة، ع12، س2013.

في مجموعة من الحقائق المتباينة بين الحضارتين حيث تحكم منطق التصادم بين المجتمع العربي الإسلامي بنظيره لغربي المسيحي فيقول فيها: «أن معظم أقطار العالم الإسلامي قد تعرضت للاحتلال "الاستعمار" العسكري المباشر، الذي جثم على المجتمع المسلم ردحا من الزمان تخطى في بعض الجهات مئات السنين، وترك آثارا سلبية ثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية، لا تزال المجتمعات المسلمة تعاني منها».[1] ولهذا نما في **الأنا** الشرقية الحس الواعي بطبيعة العلاقة الصدامية التي جمعتها **بالآخر** مشكلتا لديها مجموعة من الثنائيات الضدية محددتا من خلالها الأطر الأساسية لجدلية **الأنا والآخر**، فهي جدلية ضاربة في أعماق تاريخ الفكر البشري منذ القدم، إلا أنها عادت للظهور بقوة في الحقب الأخيرة نتيجة لما شهدته الساحة الدولية من نزاعات وصدامات عنيفة سيطرت على العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي ربطت بين شعوب العالم، «فاكتشاف الآخر وأقسامه عملية ممتدة في الزمان ولا تتوقف أبدا، وذلك بسبب التفاعل الإنساني بين الأمم والشعوب والثقافات في أوقات السلم والحرب على السواء...ولهذا لا تستطيع أية ثقافة تمثيل الآخرين إلا إذا وصلت إلى مستوى عالٍ في المستويين السياسي والاجتماعي».[2] ومن هذا المنطلق نستنتج بأن العلاقة التي تجمع بين **الشرق والغرب** في أغلب حالاتها تمتاز بالطابع الصدامي الجدلي، الذي لا يمكن إخفاؤه أو التستر عليه في أي حال من الأحوال.

تتمظهر جدلية علاقة **الشرق بالغرب** في عدة جوانب لا تقتصر فقط على الحيثيات السلوكية والأخلاقية التي تختلف بين الإنسان الشرقي ونظيره الغربي، بل تتعداه إلى أكثر من ذلك الفهم السطحي والبسيط؛ ويظهر هذا الاختلاف الحقيقي في معايير أخرى تشرح فكرة التداخل الجدلي الذي يربط بينهما «فهذه الحوادث الجزئية تمثل الفرق بين نظر الشرقي

---

[1]- علي بن إبراهيم النملة، الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، س2010، ص22.

[2]- ليلى قاسمي، فاطمة كاظم زادة، صورة الذات والآخر في رواية سوشون، مجلة الدراسات في اللغة العربية وآدابها، العدد 19، س2014.

ونظر الغربي...وهي مسألة درجات في سلم الحضارة واختلاف في البيئات، بدليل أن الأمة الواحدة يختلف تقويمها لأشياء باختلاف تاريخها أو دينها أو نحو ذلك». [1]

ومن بين أهم المسببات الأساسية للنظرة العدوانية التي يتبناها الإنسان الشرقي نحو **الآخر** الغربي، هي تلك النظرة ذات الرؤية الدونية التي يتحلى بها **الغرب** في تعامله مع **الشرق** معتمدا على مختلف الأدوات والأساليب لتحقير **الأنا** الشرقية وإذلالها مستغلا الضعف الاقتصادي والصناعي الذي تعاني منه **الأنا** ليبسط عليها سيطرته مستغلا إياها في خدمة مصالحه الشخصية، فتصبح قابعة تحت سيطرته خاضعة لأوامره، مجردا إياها من كل القيم الإنسانية« فالشخص الأوربي ينظر إلى غير الأوربي نظرة قائمة على الفوقية بغض النظر عن الخلفية الثقافية لهذا الشخص».[2]

من خلال دراستنا للروايات والآراء السابقة التي تجسدت فيها الرؤية العدوانية **للآخر** تبين لنا فيها الموقف السلبي اتجاه هذا **الآخر** الذي كان يمتاز بالعنف والقسوة الإنسانية وعبروا عن نظرتهم هذه بشكل مباشر في مختلف أعمالهم الروائية أو الأدبية؛ فجل الروايات العربية ركزت على الجانب السلبي للمستعمر الغربي ومخلفاته. والدارس لطبيعة هذا الصراع الحضاري بين **الشرق والغرب** في جل النماذج الروائية العربية يتبين له أن موقف الرفض لهذا **الآخر** هو صورة نمطية لدى **الأنا**؛ وهذا كون أن طرفي الصراع **(الأنا والآخر)** يتجدر فيهما موقف الرفض لكليهما وهو السبب الأساسي الذي يغذي وينمي هذه العلاقة العدائية.

من خلال دراستنا لموقف الأنا بالآخر وطبيعة العلاقة التي جمعت بين الشرق والغرب في العديد من العمال الروائية العربية، نجد أنها تحمل في طياتها رؤى متباينة ترصد من خلالها نقاط الالتقاء والتنافر بين العالم الشرقي ونظيره الغربي؛ فلكل رؤية موقف خاص

---

[1]- محمد أمين، الشرق والغرب، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، د.ط، د.س، ص82.

[2]- علي إبراهيم النملة، الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، ص77.

من هذه العلاقة ترمز فيه عن فضاء حضاري وثقافي شامل ويجسد البعد الاجتماعي والسياسي بين العالمين؛ فنلاحظ أن هذه الرؤى في وجودها لم تستقر على موقف واحد وثابت حيث أنها اتسمت بالتحول من مرحلة إلى أخرى. فكانت **الرؤية الانبهارية** أول رؤية أول رؤية تنظر بها الأنا العربية للآخر الغربي والتي مثلتها رواية "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" للروائي العربي **رفاعة الطهطاوي**، والتي تقوم على موقف اندهاش وتعجب الأنا العربية من المنجزات الكبرى التي توصلت إليها الحضارة الغربية في شتى الميادين بعد الاحتكاك بها ومحاولة مواكبتها والانغماس فيها.

لتلي هذه الرؤية الانبهارية **رؤية حضارية** تشكل موقف مغاير للرؤية الأولى من خلال تبني الأنا العربية موقفها الحضاري من الغرب باعتباره موطن الحداثة والتقدم، عن طريق رحلات السفر التي كان يقوم بها العرب من أجل طلب العلم واستكشاف الحضارة الغربية؛ كرحلة **طه حسين** إلى (فرنسا) لاستكمال دراسته العليا، فلخص لنا رحلته هذه في رواية الأيام؛ وبعد هذه الرؤية تبنى العرب رؤية جديدة للغرب تقوم على تحديد الأطر السياسية المنظمة لشؤون الدول وطرق الحكم فيها؛ عن طريق تسليط الضوء على الجانب السياسي العربي ومقابلته بنظيره الغربي؛ لتقوم هذه **الرؤية السياسية** التي تبناها الروائيون العرب في ثنايا رواياتهم، كرواية "نجمة أغسطس" للروائي المصري **صنع الله إبراهيم**، على فك الخناق للحرية الفردية في الوطن العربي للخوض في أمور السياسة والحكم.

وفي الأخير يتحول موقف **الأنا العربية** من **الآخر الغربي** لنظرة سلبية وهي نظرة مضادة لهذا **الآخر** الذي يسعى إلى تهميش وإقصاء الذات العربية، وهو الأمر الذي تبنته **الرؤية العدوانية** بعد كشف الأنا للوجه الحقيقي للآخر المستعمر، الذي كان يسعى جاهدا لطمس هويتها وسلخها عنها؛ فنتج عن هذه الرؤية فكرة الصراع والعدوان **للآخر الغربي**، وهذا ما جسدته العديد من الأعمال الروائية العربية كرواية "عائد إلى حيفا" **لغسان كنفاني**.

فنجد أن هذه الرؤى تحمل في مجملها مواقف مختلفة تجسد طبيعة العلاقة بين **الأنا العربية والآخر الغربي**، حيث أن لكل رؤية منها موقفها الخاص تجاه **الآخر** نتيجة للاحتكاك المباشر بين الحضارتين.

الفصل الثاني: صراع الأنا والآخر في رواية موسم الهجرة إلى الشمال

- ثنائية الشمال والجنوب
- ثنائية العرب (الحقيقة) والغرب (الوهم)
- ثنائية الرجولة والأنوثة
- ثنائية العلم والجهل
- ثنائية الماضي والحاضر
- ثنائية المركز والهامش

بداية ومرورًا بمشهد الحياة الذي بات الإنسان يطلع فيه ويطل في نافذة الماضي، مدركًا رهانات المستقبل، يظهر بذلك الحاضر جليًّا متلمسا الخليط الذي يشكل آماله وآلامه وطموحاته المشتركة بين جميع أفراد مجتمعه، والواضح هنا أن هذا الخليط الرفيع يصبح بارزًا أثناء إلتقاء أو اختلاف مراحل الانطلاق أو الوصول، وبهذا إن صح القول يلتقي الإنسان بنقاط تحاول تغيير مجرى أو مسار ما في حياته بدءًا بالعوامل الخارجية أو الداخلية، فلا يمكن فصل أو بتر أي محطة من المحطات التي تجعله سعيدا أو حزينا فيها، وما الحياة إلا مزيج من **الثنائيات الضدية** فلولا الشر لما أدركنا حقيقة الخير، ولولا الموت لما أدركنا حقيقة الحياة وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن هذه **الثنائيات الضدية** تساعدنا بشكل كبير في فهم ماهية وحقيقة الأمور ووضعها في نصابها على النحو الذي ينبغي أن تكون عليه، فبمعزل عنها لا يمكن للإنسان معرفة أو كشف جوهر حقيقة الأشياء في هذه الحياة، فالأشياء تعرف بأضدادها حيث أنه لا يمكننا فهم أمر ما في هذه الحياة إلا بمقابلته بالأمر الذي يكون نقيض له. ومنه يكون أمر الجمع بين هذه الأمور المتناقضة خطوة ضرورية وأساسية لا يمكن الاستغناء عنها بغية فك الغموض عن الأشياء ورفع اللبس عنها «فالثنائيات الضدية موجودة منذ الأزل...ولا تظهر فضيلة إلا باقترانها بالضد، ولا معنى للكرم من غير اقترانه بالضد، فلا بد لكل شيء من ضد يميزه ويوضحه». [1]

يشتمل موضوع **الثنائيات الضدية** على مفاهيم متعددة يصعب علينا حصرها في تعريف واحد شامل ودقيق، فهي تحيل في الغالب إلى «وجود أمرين متضادين برباط واحد، وهي فكرة يقوم عليها إيقاع الكون إنها قانون الكون وناموس الطبيعة الكونية...لكن العلاقة بين الثنائيات

[1]- سمر الديوب، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، سوريا، ط1، س2017، ص10.

الضدية علاقة تضاد، أي تواز بين طرفي الثنائية». [1] ويعتبر مصطلح «الثنائيات الضدية ظاهرة فلسفية أساسا...له أبعاد إيديولوجية وفلسفية موغلة في القدم». [2]

تجسدت **الثنائيات الضدية** في العديد من الأعمال الأدبية خاصة الروائية منها، وهو الطرح الذي نجده حاضرا من خلال دراستنا لرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني **الطيب صالح** التي عدت «أفضل الروايات العربية متناولة علاقة الأنا العربي والآخر الغربي ضمن موضوع الصراع الحضاري بيننا وبين الغرب». [3]

ضمت الرواية في ثناياها العديد من **الثنائيات الضدية** أراد من خلالها **الطيب صالح** إظهار مجموعة من المفارقات المتباينة التي جمعت بين المجتمع العربي (السوداني) ونظيره الغربي (الإنجليزي)، مصورا لنا فيها طبيعة علاقة الصدام الحضاري بين المجتمعين ولعل من بين أهم الثنائيات الأكثر بروزا وحضورا في المتن الروائي، نجد ثنائية "الشمال والجنوب"،"العرب(الحقيقة) والغرب (الوهم)"، "الرجولة والأنوثة"، "العلم والجهل"، "الحاضر والماضي"، وأخيرا ثنائية "المركز والهامش".

---

[1]- سمر الديوب، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته، ص23.

[2]- المرجع نفسه، ص10.

[3]- عبد القادر شريف بموسى، ثنائية الرجولة والأنوثة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل للأبحاث العلمية، الجزائر، ع17، س2016.

1_ ثنائية الشمال والجنوب:

أول شيء يقابلنا عند تصفح أي عمل أدبي أو روائي هو عتبة العنوان التي تعتبر بمثابة نقطة تفاعل بين المتلقي والعمل الإبداعي، فيحرص الكاتب دائما على جذب القراء ولفت انتباههم إليه، وعند دراستنا لرواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني **الطيب صالح** يقابلنا عنوان الرواية الذي يعكس ثنائية جغرافية يجمع فيها بين ثنائية **الشمال والجنوب** فيصرح بالشمال ويغيب الجنوب الذي يبقى ضمني داخل الرواية، فلا يمكننا الحديث عن أي منهما دون استحضار الآخر.

أ) إنجلترا المادية:

يتجسد **الشمال** في رواية **الطيب صالح** معبرا عن المجتمع الغربي والمجتمع الإنجليزي على وجه التحديد «وفي وسعنا إذا من الآن أو قبل المباشرة في أي تحليل أن نترجم إلى "لغتنا" عنوان رواية الطيب صالح، فنقول: موسم الهجرة إلى الغرب».[1] **فالشمال (الغرب)** هنا ينظر إليه من جانبين مختلفين أولهما يمثل **الشمال** المتقدم حضاريا واجتماعيا وثقافيا، أي على كافة الأصعدة؛ الأمر الذي جعله قبلة يرتاد إليها أهل **الجنوب** بغية النهل من علومه المختلفة، وهو ما رصده لنا الروائي في مطلع روايته قائلا: «عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوربا، تعلمت الكثير وغاب عني الكثير».[2] وهذا ما يمثل لنا صوت شخصية الراوي المجهول الذي عاد إلى وطنه الأم (السودان) الذي يقع في **الجنوب**، بعد انتهاء فترة دراسته وتحصيله العلمي في البلاد الغربية (أوربا) التي دامت مدة زمنية طويلة قدرت بسبعة سنوات؛ إلا أن هذه المدة الزمنية التي قضاها الراوي في **الشمال**

---

[1]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1، س1977، ص142.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، س1979، ص29.

لم تجعله ينسى أصالته الشرقية وانتماءه العرقي **للجنوب**، فظّل محافظا على الهوية العربية ولم ينغمس في هوية الغرب بالرغم من احتكاكه المباشر معهم، وكان يعتريه شوق كبير وحنين رهيب إلى وطنه وأهله في **الجنوب** (السودان)؛ ما يظهر في قوله: «المهم أنني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل، سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم».[1] وعلى هذا الأساس يظهر لنا مدى الحب الشديد الذي يكنه الراوي إلى وطنه بالرغم من رحيله إلى بلاد **الشمال** (لندن) التي كانت متطورة في جميع المستويات يطمح إلى بلوغها أي إنسان، واحتواءه لمختلف الضروريات التي يسعى إلى تحقيقها الفرد في هذه الحياة إلا أن تعلقه الشديد لبلده (السودان) لم يفارق أبدًا مخيلته، ما يدل على اتصاله الشديد بوطنه والتمسك به، فكان هدفه الأساسي من الانتقال إلى **الشمال** (لندن) هو السعي وراء نيل شهادة الدكتوراه في الأدب والشعر الإنجليزي خلال الفترة التي قضاها في البحث والتفتيش عن حياة أحد الشعراء الإنجليز مخصصا هذه الدراسة له، وهذا ما يظهر في الحوار الذي دار بينه وبين شخصية البطل **مصطفى سعيد** مبيننا له سبب انتقاله **للشمال** قائلا: «وأنا أتصنع التواضع، الأمر لا يعدو أنني قضيت ثلاثة أعوام، أنقب في حياة شاعر مغمور من شعراء الإنجليز».[2]

وفي محطة أخرى يذهب بنا **الطيب صالح** في "رواية موسم الهجرة إلى الشمال" لاستعراض وجهة نظر البطل الراوي وموقفه حول المجتمع الإنجليزي ومقابلته بالمجتمع السوداني، فيستحضر هنا ثنائية **الشمال والجنوب**؛ ومن المتعارف عليه ان هذه الثنائية دائما ما تحمل في طياتها طبيعة الاختلاف الحضاري بين المجتمعين الغربي الذي امتاز واشتهر بماديته، وبين المجتمع العربي الذي ظّل متمسكا بروحانيته؛ وهو الأساس الذي بنيت عليه

---

[1]-الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص29.

[2]-المصدر نفسه، ص34.

العديد من الأعمال الروائية العربية فقد «اعتاد الكاتبون أن يصفوا الشرق بالروحانية والغرب بالمادية». [1]

فالراوي البطل يصور لنا في هذه الرواية وجهة نظر مختلفة عن النظرة السائدة بين **الشمال والجنوب**، فهو يرى أنه لا توجد فوارق جوهرية بين مجتمعه السوداني والمجتمع الإنجليزي الذي عاش معه مدة زمنية معتبرة؛ فالراوي البطل يرى بأنهم يتمتعون بكل الصفات الإنسانية والأخلاقية الحميدة التي تتوفر عند أي فرد؛ وأنهم يمارسون مختلف الأعمال والنشاطات المتنوعة، ما نجده واضحا في هذا المقطع من الرواية الذي يجيب فيه عن أسئلة كثيرة طرحت عليه من طرف أهل قريته بعد عودته من **الشمال** قائلا: «دهشوا حين قلت لهم أن الأوربيين، إذا استثنينا فوارق ضئيلة، مثلهم تماما، يتزوجون ويربون أولادهم حسب التقاليد والأصول، ولهم أخلاق حسنة، وهم عموما قوم طيبون... نعم منهم مزارعون وبينهم كل شيء منهم العامل والطبيب والمزارع والمعلم، مثلنا تماما».[2] وعلى هذا الأساس يتضح لنا عدم وجود تمايز كبير بين **الشمال والجنوب** باستثناء بعض الفوارق.

أما الوجه الآخر الذي يرصده لنا **الطيب صالح** في روايته حول **الشمال** يتمثل أساسا في شخصية البطل **مصطفى سعيد** القادم من **الجنوب** والذي يعتبر شخصية غامضة دارت حولها جل أحداث الرواية ووقائعها؛ فهو يظهر في عدة مواقف من الرواية على أنه ذهب إلى **الشمال** (إنجلترا) متقمصا شخصية البطل الثائر لبلاده جراء ما خلفه الاستعمار الإنجليزي فيها من تبعات لا يزال الشعب السوداني يدفع ثمنها إلى اليوم، كما يظهر في هذا المقطع «أنا الغازي الذي جاء من الجنوب، وهذا ميدان المعركة الجليدي الذي لن أعود منه ناجيا».[3] ومن هذا القول نستنتج أن الروائي **الطيب صالح** استطاع وبجدارة أن يقلب الموازين المتعارف

---

[1]- أحمد أمين، الشرق والغرب، ص87.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص31.

[3]- المصدر نفسه، ص147.

عليها في المتن الروائي لطبيعة العلاقة التي تجمع بين **الشمال** (الغرب) **والجنوب** (الشرق) فدائما ما يكون **الشمال** مركز القوة والطرف الغالب والمسيطر (المُسْتَعْمِر)، في حين يمثل **الجنوب** مركز الضعف والطرف المغلوب والمسيطر عليه (المُسْتَعْمَر)؛ ليتمكن **الطيب صالح** من خلال طرحه هذا عكس موازنة المُسْتَعْمِر بالمُسْتَعْمَر، ما يترجم عبقريته الفذة في السرد الروائي وهذه الفكرة غالبا ما نجدها تتكرر في مقاطع عديدة من الرواية كقوله أيضا: «نعم يا سادتي، إنني جئتكم غازيا في عقر داركم. قطرة من السم الذي حقنتم به شرايين التاريخ». [1] ما يؤكد لنا رغبة **مصطفى سعيد** للانتقام من **الشمال** ورد الاعتبار **للجنوب**. على الرغم من الحقد الدفين والبغض الشديد الذي يكنه **مصطفى سعيد للشمال** (الغرب) خلال فترة تواجده في (إنجلترا)، إلا أن السبب الأول الذي جعله ينتقل من **الجنوب** (السودان) إلى منطقة **الشمال** (إنجلترا) هو دافع الدراسة وطلب العلم بعد أن أخبره ناظر المدرسة التي كان يتلقى التعليم فيها أن «هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر اذهب إلى مصر أو لبنان أو إنكلترا. ليس عندنا شيء نعطيك إياه بعد الآن».[2] وبعد سماعه لهذا الكلام تشجع **مصطفى سعيد** لفكرة الخروج من بلدته الصغيرة المحدودة إلى بلد آخر يستوعب عبقريته وينمي قدرته الفكرية فيه، وهذا البلد تمثل أساسا في **الشمال** حيث استطاع البطل أن يحصل فيه على مختلف الشهادات العلمية التي أهلته لاكتساب مكانة مرموقة بينهم كالحصول على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد ما جعله يظفر بمنصب مدرس في أحد جامعات لندن فيقول: «عينت محاضرا للاقتصاد في جامعة لندن وأنا في الرابعة والعشرين»؛[3] وهذا ما مكن **مصطفى سعيد** من تحسين مستواه العلمي بجدارة كبيرة الأمر الذي جعله مؤهلا ليفرض نفسه على المجتمع الإنجليزي عن طريق ما أحرزه من تحصيل علمي.

---

[1]-الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص100.

[2]-المصدر نفسه، ص46.

[3]-المصدر نفسه، ص54.

تعتبر كلمة **الشمال** رمزا دلاليا استخدمه **الطيب صالح** في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" شاحنا إياه بالعديد من القصديات التي تعكس لنا الحضارة الغربية بنظرة الإنسان الشرقي، ليكشف للقارئ والمتلقي خبايا هذا العالم الشمالي من خلال شخصية **مصطفى سعيد** الذي يعتبر همزة وصل بين العالمين الشمالي والجنوبي؛ ليصور لنا عن طريقها طبيعة العلاقة التي تجمع بين الشرق والغرب من خلال التجارب التي عاشها هذا الأخير **(مصطفى سعيد)** في فترة تواجده في (إنجلترا) وبعد عودته إلى (السودان).

كما ارتبطت كذلك كلمة **الشمال** في هذه الرواية بنهر النيل حيث لا نكاد نجد كلمة النهر إلا وتزامنت مع ظهورها كلمة **الشمال** كبروزه في هذا المقطع الروائي «النهر الذي لولاه لم تكن بداية ولا نهاية، يجري نحو الشمال، لا يلوي على شيء، قد يعترضه جبل فيتجه شرقا وقد تصادفه وهدة من الأرض فيتجه غربا، ولكنه إن عاجلا أو آجلا يستقر في مسيره الحتمي ناحية البحر في الشمال».[1] فيصور لنا **الطيب صالح** في هذا الموقف أن النهر هو الآخر يسير بدوره نحو **الشمال** حاله حال الشعوب العربية التي تطمح دائما للاتجاه ناحية **الشمال** رغم العقبات التي تواجهها في أية لحظة؛ «فرواية موسم الهجرة إلى الشمال هي قصة هذا النهر، قصة هذا التيار الجارف الذي يحمل منذ هل القرن العشرون، أفواجا تلو أفواج من بشر الجنوب إلى بلاد الشمال في رحلة جبرية، محكومة بقوانين جديدة كنواميس الطبيعة».[2]

ب) السودان الروحي:

بما أننا تحدثنا في أول الأمر عن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" فالجزء الأول من الثنائية مثل **الشمال**، ننتقل الآن للحديث عن الجزء الثاني من هذه الثنائية ألا وهو **الجنوب** الذي لم يرد بشكل مباشر في عنوان الرواية، إلا أننا لا نلبث حتى نلتمس وجوده بشكل واضح

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص81.

[2]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص134.

وجلي عند تصفحنا للرواية وفك شفراتها؛ فجل أحداث الرواية تدور حول إبراز المفارقة الحضارية بين **الجنوب والشمال**؛ وأول وصف قدمه لنا **الطيب صالح** في مطلع روايته عن **الجنوب**، هو تلك القرية الصغيرة التي ينتمي إليها الراوي البطل الواقعة في (السودان). فحصر لنا **الجنوب** في هذا الوطن الذي كان دائما الراوي يحن إليه ولا يفارق مخيلته بتاتا رغم مدة اغترابه وبعده عنه بحكم استكمال تحصيله الدراسي وتطوير مستواه العلمي في **الشمال** (إنجلترا)، إلا أن طيف هذا **الجنوب** (السودان) كان دائما ما يهز كيانه ووجدانه للعودة إليه فيقول في بداية الرواية: «المهم أنني عدت وبي شوق عظيم إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل، سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم».[1] وبهذا يمكننا القول بأن الراوي لم ينسلخ عن هويته الشرقية وبقي متمسكا بذاتيته وأصالته الجنوبية التي لم يستطع الانحراف عنها كانت متجذرة في أعماق كيانه ولم تفارقه أبدا طيلة مدة تواجده في **الشمال**، وانغماسه في المجتمع الإنجليزي الذي عاش بينهم، إلا أن هذا الانغماس في مادية المجتمع الغربي لم يؤثر ولم يزعزع مبادئه الأصلية التي ورثها عن **الجنوب** (السودان) الأمر الذي جعله يحن إليها؛ فالإنسان العربي دائما ما نجده متمسكا «بالقيم العربية الدينية الراسخة، قيم الوحدة، الحرية، الأصالة والتراث، الكرامة القومية، العزة الدينية، والحفاظ على العقيدة... يضاف إليها قيم وطنية وشخصية مثل الشجاعة والكرم والنخوة والشهامة والكرامة الشخصية وحرية الرأي والتعبير، واحترام الغير والاستقلالية الفردية وتمثل هذه القيم بداية لاستيعاب تأثيرات الجو الديمقراطي الآخذ في الانتشار والتعمق في المجتمع، كما أنها تمثل انجذابا لقيم الحداثة والتحديث الغربية، وانفتاحا أكبر على الثقافات الأخرى».[2] وعلى هذا الأساس يتبين أن

---

[1]-الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص29.

[2]-الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، س1999، ص381.

المجتمع العربي الجنوبي ظّل محافظا على الموروث التقليدي المشكل لهويته وكذلك نجده متمسكا بثقافته الشرقية على الرغم من اتصاله المباشر بالثقافات الأخرى.

ومن جهة أخرى رسم لنا **الطيب صالح** صورة أخرى عن **الجنوب** مشخصا لنا إياها في الصحراء التي ما تكون دائما أقرب لهذا **الجنوب** متناغما معه فالصحراء عند ذكرها دائما ما تقترن **بالجنوب**؛ وهذا **الجنوب** دائما ما يحمل دلالات التعبير عنها، أي أن هناك علاقة تكاملية تجمع بينهما، (فالسودان) منطقة صحراوية تنتمي إلى **الجنوب** تتميز بقساوة مناخها الذي اشتهر بحرارته المرتفعة؛ وعلى هذا الأساس صور لنا الروائي **الجنوب** (السودان) في أحد المقاطع قائلا: «اتجهت جنوبا في زاوية مستقيمة وضربت في الصحراء، لا يوجد مأوى من الشمس التي تصعد في السماء بخطوات بطيئة وتصب أشعتها على الأرض كأن بينها وبين الأرض ثأرا قديما»؛[1] ومن هذه العبارة تتضح لنا القساوة المناخية التي يمتاز بها **الجنوب** ما جعل من الراوي يشبه الشمس بالعدو الأول للإنسان نظرا لحرارتها التي لا يمكن احتمالها فكانت الحياة جد قاسية على الإنسان العربي (السوداني) في هذا **الجنوب** الذي كان مجتمعه يمتاز بحياة ريفية بسيطة يعتمد فيها الناس على الزراعة والفلاحة بدون استعمال أي تطور علمي أو تكنولوجي في هذا الجانب؛ الأمر الذي جعل الحياة صعبة في هذا الجنوب، فلا يوجد شيء فيها غير «الشمس والصحراء ونباتات يابسة وحيوانات عجفاء»،[2] عكس ما يمتاز به المناخ في **الشمال** الذي يعرف ببرودة طقسه كما وصفه لنا الراوي في بداية روايته قائلا: «ذاك دفء الحياة في العشيرة، فقدته زمانا في بلاد تموت من البرد حيتانها.»[3]

---

[1]- الطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال، ص107.

[2]- المصدر نفسه، ص108.

[3]- المصدر نفسه، ص29.

يبين لنا **الطيب صالح** في هذه الرواية أن التقابل بين **الشمال والجنوب** «وإن كان له أساس جغرافي إلا أنه تقابل حضاري». [1] يجمع بين العالمين الشرقي والغربي من خلال نقاط الالتقاء والتنافر؛ وعلى هذا النحو يمكننا القول بأن طبيعة روح التاريخ نجدها تسير من **الجنوب** إلى **الشمال** أي من بدايات التاريخ العربي القديم على ما وصل إليه الغرب الحداثي.

مثلت شخصية **مصطفى سعيد** ذلك الإنسان الجنوبي المتعطش **للشمال** الذي اعتبره موطن الحضارة والتمدن؛ وهو ما أدى به إلى طمس هويته وكينونته الجنوبية متناسيا كل ما له علاقة **بالجنوب** فيقول: «كان كل همي أن أصل لندن، جبل آخر أكبر من القاهرة، لا أدري كم ليلة أمكث عنده». [2] فكان الهم الوحيد **لمصطفى سعيد** هو عبور نهر النيل والوصول إلى الضفة الشمالية التي يتمكن من خلالها مواصلة التعلم الذي لم تستوعبه إمكانيات العالم الجنوبي؛ فكانت ثقافة الآخر هي السبيل الوحيد لتحقيق ذلك. وشخصية **مصطفى سعيد** تعبر عن حال بعض الشعوب العربية التي سارت وفق هذا المنحى «فعندما يهاجر الشرقيون هجرات دائمة أو مؤقتة إلى الغرب، فينصهرون فيه ويتمثلون معطياته متنازلين عن ماضيهم وعراقتهم». [3]

ومن هذا المنطلق يتبين لنا أن كل فرد مغترب عن وطنه وهاجر إلى **الشمال** لا يسعى بالضرورة إلى حفظ تراثه والتمسك بذاتيته وأصالته الشرقية كما فعلت شخصية الراوي المجهولة وإنما هناك فئة تتناسى كل هذه المبادئ والقيم بمجرد وصولها إلى وجهتها الجديدة على نحو ما قاله **مصطفى سعيد** «أنا جنوب يحن إلى الشمال». [4] فهو يحمل نظرة حضارية عن هذا **الشمال** الذي يحن للوصول إليه باعتباره موطن الرقي والحضارة «فحنينه حنين إلى الحضارة

---

[1]- حسن حنفى، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة، س1991، ص764.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص48.

[3]- علي إبراهيم النملة، الشرق والغرب منطلقات العلاقة ومحدداتها، ص46.

[4]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص134.

لكن هذا الحنين فيه من الحقد بقدر ما فيه من الحب، وتلك هي بالضبط مأساة مصطفى سعيد».[1] وهذا ما يبين لنا أن شخصية **مصطفى سعيد** هي شخصية متذبذبة ومضطربة في آن واحد فهي تتأرجح بين الحب والحقد وبين التسامح والكراهية تارة أخرى، وهي كلها مواقف متناقضة تحملها هذه الشخصية في نظرتها وعلاقتها بهذا **الشمال.**

تحددت ثنائية **الشمال والجنوب** في "رواية موسم الهجرة إلى الشمال" **للطيب صالح** في عدة جوانب مختلفة تظهر طبيعة العلاقة التي جمعت بين **الجنوب** (السودان) و**الشمال** (إنجلترا) من خلال هذه الثنائية الجغرافية التي جسدتها عدة شخصيات بارزة في الرواية تحمل كل منها بعدا رمزيا مميزا يصور لنا من خلاله ثناية **الشمال والجنوب** على النحو الذي يمكننا من رصد خصائص ومقومات كل جزء من طرفي الثنائية على حدى **(الشمال والجنوب).**

فالطيب صالح جسد لنا **الجنوب** من خلال شخصية الراوي، والبطل **مصطفى سعيد** اللذان مثلا المجتمع السوداني وأرض الوطن وحملا على عاتقيهما فكرة التعبير عنه على الرغم من اختلافهما في وجهة النظر التي رصدا بها هذا **الجنوب** فكانت لهما نظرة متباينة في تقديمه؛ أما الشخصية الثالثة فتمثلت في الجد الذي لقب **بالحاج أحمد،** لكن في حقيقة الأمر ما هو إلا رمز تاريخي يحكي ويسرد التاريخ السوداني؛ فبالرغم من تقدمه في السن إلا أنه يعتبر «شيء ثابت وسط عالم متحرك». [2]

أما بالنسبة **للشمال** اقتصر **الطيب صالح** على حصره في الشخصيات الأنثوية التي كانت أكثر حضورا فيه كشخصية **مسز روبنسن** التي قامت برعاية **مصطفى سعيد** خلال فترة تواجده في (القاهرة) بمساعدة زوجها **مستر روبنسن،** فهما أحبا **مصطفى سعيد** كأنه ابنهما وتكفلا به؛ ومثلا **الشمال** بوجهه الحضاري والإنساني؛ إضافة إلى شخصية **جين مورس** التي

[1]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص144.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص67.

أصبحت فيما بعد زوجة **مصطفى سعيد** حيث جسدت الوجه العدائي الذي يكنه **الشمال للجنوب** من خلال حقدها الشديد على شخصية **مصطفى سعيد**.

تبنى **الطيب صالح** في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" طرحا جديدا لطبيعة العلاقة التي تجمع بين **الأنا والآخر** حيث حصر لنا الآخر كجزء أول من الثنائية الذي يمثل **الشمال**، والأنا كطرف ثان من الثنائية الذي يمثل **الجنوب**؛ وعلى هذا الأساس «فمبدأ علاقة الأنا بالآخر علاقة تضاد وليست علاقة تماثل، ولكنه صحيح من حيث الواقع أي ضرورة التعلم والتعرف على حضارات الآخر، بصرف النظر عن مصدرها ثم تمثلها واحتواءها واكمالها».[1] أي أن الانفتاح على الآخر والتعامل معه هو أمر طبيعي على الرغم من وجود مفارقات بينهما، وعلى هذا الأساس يكون الانفتاح مع هذا الآخر في الأمور الإيجابية أمرا ضروريا مع حسن استغلالها وتطويرها، لتصبح مواكبة لمستجدات الحياة وخادمة لاحتياجات الفرد والمجتمع.

2_ ثنائية العرب (الحقيقة) والغرب (الوهم):

إضافة إلى ثنائية **الشمال والجنوب** التي تطرقنا إليها سابقا تستوقفنا في هذه الرواية ثنائية أخرى تتجلى في **العرب** الذي يمثل بدوره الحقيقة و**الغرب** الذي يمثل الوهم؛ فيقدم لنا الروائي من خلال هذه الثنائية مفارقة الحقيقة والوهم بين العرب (السودان) والغرب (إنجلترا) فهذه الثنائية الضدية ليست بالموضوع الجديد والمستحدث في الساحة الأدبية العربية، إنما هو موضوع تناولته العديد من الأعمال الإبداعية العربية في فترات مختلفة من الزمن؛ لكن **الطيب صالح** قدم لنا هذه الثنائية بقالب جديد يستحضر فيها عالمين أحدهما يشكل **الحقيقة** (العرب) والآخر يمثل **الوهم** (الغرب) عن طريق شخصية البطل **مصطفى سعيد** الذي عايش هذين العالمين واكتشف حقيقة كل منهما من خلال تجربته التي عاشها هناك. أما الراوي فقد أكد لنا هذه الثنائية الضدية في بداية الرواية حين قال: «سبعة أعوام وأنا أحن إليهم وأحلم بهم. ولما

[1]- حسن حنفى، مقدمة في علم الإستغراب، ص16.

جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتني حقيقة قائما بينهم». [1] وهذا يعتبر اعتراف أدلى به الراوي حين عاد إلى بلده (السودان) الذي أصبح حقيقة بالنسبة له بعد أن كان وهما لاحقه في البلاد الغربية؛ فعندما وطأت قدميه أرض الوطن وعودته من الغربة أحس بذلك الدفء العائلي وهو متواجد بين أهله وأصدقائه، ما جعله يشعر بروح الانتماء الحقيقي للوطن الأم (السودان) وهو الشعور الذي كان يفتقده خلال فترة غربته وتواجده في إنجلترا.

و**الحقيقة** هنا عند الراوي لا تتمثل في تلك الحضارة الغربية المتقدمة، ولا في تلك المكانة التي وصلت إليها نتيجة تطورها العلمي والتكنولوجي، بل تكمن **الحقيقة** عنده في تلك الصلة أو الرابط القوي الذي يجمعه بأهل بلدته ومشاركتهم كل أحزانهم وأفراحهم، فهو يعتبر نفسه جزء لا يتجزأ منهم؛ فكانت تربطه علاقة وطيدة بجده الذي كان أقرب إنسان إليه ويجالسه دائما لسماع حكايات الماضي التي تحمل الحقائق التاريخية التي مرت بها (السودان) في مختلف الحقب الزمنية؛ كون أن الشيخ عايش كل الأحداث التي طرأت على هذا الوطن بحلوها ومرها، فكان بمثابة المؤرخ التاريخي الذي يسجل كل صغيرة وكبيرة ألمت بهذا الوطن ويحتفظ بها ويقدمها كحقائق تاريخية للأجيال القادمة، ما يبدوا واضحا في قول الراوي: «أذهب إلى جدي فيحدثني عن الحياة قبل أربعين عاما، قبل خمسين عاما، لا بل ثمانين، فيقوى إحساسي بالأمن، كنت أحب جدي ويبدو أنه كان يؤثرني، ولعل أحد أسباب صداقتي معه أنني كنت منذ صغري تشحذ خيالي حكايات الماضي».[2]

يتجاوز **الطيب صالح** في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" من خلال ثنائية **العرب والغرب** تلك النظرة السائدة حول الغرب، فبعدما كانت هذه النظرة تتسم بالإعجاب والانبهار لما وصل إليه هذا الآخر الغربي من تقدم وازدهار، أصبحت نظرة مغايرة تماما لهذا المنحى وأخذت مسارا آخرا جديدا «فانتقل مركز الاهتمام من المجالات الدينية والفكرية إلى المجال

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص29.

[2]- المصدر نفسه، ص32.

السياسي، وبالتالي ما عادت أوربا بلد الحضارة الغربية».[1] وعلى هذا الأساس أصبح الغرب لا يجسد تلك **الحقيقة** المتعارف عليها عند **العرب** بل كان عبارة عن حقيقة زائفة سقط القناع عنها نتيجة لاحتكاك الذات العربية بالآخر الغربي، وإعادة تشكيل نظرتها له من جديد؛ وهو الأمر الذي مكن العرب من استدراك هذه الحقيقة المغيبة لفترة طويلة من الزمن.

والمتمعن في رواية **الطيب صالح** يكتشف تلك النظرة التي ذكرناها سابقا حيث تشكلت من خلال العديد من الشخصيات البارزة داخل المتن الروائي، والتي كانت تحمل مواقف متباينة لهذا الغرب؛ فنجد شخصية **البطل مصطفى** سعيد من بين أهم هذه الشخصيات البارزة في الرواية ممثلة ثنائية **العرب** (الحقيقة) و**الغرب** (الوهم)، كون أن جل أحداث الرواية تدور حوله فهو شخصية مضطربة عرفت العديد من التناقضات حيث لا يمكن النظر إليها من زاوية واحدة «فمصطفى سعيد له أدوار متعددة تعدد متناقضاته وتعدد العناصر التي تتركب منها شخصيته، وقد حذرنا هو بنفسه من النظر إليه بعين واحدة».[2] فإذا عدنا للأحداث التي عاشها في العالمين العربي والغربي نجد بانه سردها لنا بطريقة توحي إلى أنه حصر كل حياته التي أمضاها في (لندن) داخل بوتقة من الأكاذيب؛ لأنه كان يشعر أن كل ما أمضاه في تلك المدينة الغربية ما هو إلا أكذوبة حياته فهو يرى بأنه شخص لا قيمة له في هذه الحياة والوجود؛ بل هو مجرد وهم بني على مجموعة من الأكاذيب التي أودت به في آخر المطاف إلى جدران المحاكم وقبضان السجون ؛ فعندما أراد أحد أساتذته أن يخلصه من حبل المشنقة وهو بين القضاة الإنجليز راوده شعور بالصراخ والاعتراف بما كان يجول في خاطره على أنه مجرد خيال، كما يظهر في أحد مقاطع الرواية: «هذا المصطفى سعيد لا وجود له، إنه وهم أكذوبة وإني أطلب منكم أن تحكموا بقتل الأكذوبة».[3] وعلى هذا الأساس نجد أن **مصطفى سعيد**

---

[1]- هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار للنشر، بيروت، ط2، س1981، ص133.

[2]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص159.

[3]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص54.

أراد التخلص من هذا العبأ الثقيل الذي أرهق كاهله وشتت ذهنه؛ فأراد التخلص نهائيا من هذه الأكذوبة مثلما بدأت في المرة الأولى حين قدومه لهذه البلاد الغربية(لندن)، فهذه الحضارة الغربية هي التي ساهمت في خلق كل هذه الشخصيات المتباينة وتوزيع الأدوار على البطل **مصطفى سعيد** نتيجة لطبيعة البيئة الإنجليزية التي لم تسمح له أن يحيا حياة عادية وأن يكون على حقيقته الشرقية وطبيعته العربية «فلم يكن بحكم الظرف إلا صورا متعددة من أوهام أوربا صورا من أوربا إلى نفسها كأنه بلا هوية».[1] أي أن **مصطفى سعيد** لم يمتلك حق اختيار تقرير مصيره في هذا البلد الغربي، بل كان مجبرا للسير على النحو الذي فرضته عليه هذه الحضارة الغربية، أي حسب ما يتوافق مع مصالحها الشخصية دون مراعاة حقيقته العربية التي همشت تماما لأنها لم تساعده في العيش والتأقلم مع مبادئ وقيم هذه الحضارة الغربية الوافد إليها؛ فكون البطل **مصطفى سعيد** يحمل الصفات العربية الإفريقية التي ينتمي إليها والتي كانت مهمشة وينظر إليها بعين الاحتقار والسخرية من قبل الغرب، وهو الأمر الذي فرض عليه ضرورة استخدام كل أساليب الكذب والمراوغات بغية الوصول لتحقيق كل رغباته في هذه الحياة، فوصف نفسه في أحد محاوراته مع **إيزابيلا سيمور** قائلا: «نعم هذا أنا، وجه عربي كصحراء الربع الخالي، ورأسي إفريقي يمور بطفولة شريرة».[2] فلم يكن أمام **مصطفى سعيد** من حل آخر غير الكذب والأوهام من أجل فرض نفسه وكيانه على هذه الحضارة الغربية التي هاجر إليها؛ فكان ذلك هو أسلوبه الوحيد الذي يتمكن من خلاله العيش بينهم.

لكن بعد فترة من الزمن تحولت كل هذه الأكاذيب والأوهام التي يعيشها **مصطفى سعيد** إلى كابوس لا يفارقه ليلا ونهارا، نتيجة موت زوجته **جين مورس** التي قتلها بيديه؛ فبعد تلك الحادثة أدرك أن كل حياته التي قضاها في البلاد الغربية ماهي إلا أكذوبة كبيرة عاشها واكتشف حقيقتها بعد فوات الأوان كما يظهر في قول **مصطفى سعيد:** «كل شيء حدث قبل

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص22.

[2]- المصدر نفسه، ص58.

لقائي إياها كان إرهاصا، وكل شيء فعلته بعد قتلها كان اعتذارا، لا لقتلها، بل لأكذوبة حياتي».[1] فيوضح لنا **مصطفى سعيد** في هذا القول انه كان شديد الندم على تلك الحياة التي ضاعت منه ولم يعش منها ولو حقيقة واحدة. فكان كل همه السعي وراء القضاء على تلك الأكذوبة بشتى الطرق والوسائل خاصة بعد فترة محاكمته على الجرائم التي نسبت إليه، وهو الأمر الذي لم يفارق مخيلته خلال فترة محاكمته، فكما ذكرنا سابقا أن **مصطفى سعيد** أراد التخلص من هذه الأكذوبة لنجده في محطة أخرى من الرواية يعترف بالجرائم التي نسبت إليه ويطالب بشنقه، إلا أن هذا الاعتراف بقي في مخيلته ولم يستطع البوح به أمام القاضي الإنجليزي حيث يقول: «خطر لي أن أقف وأقول لهم: هذا زور وتلفيق، قتلتهما أنا، أنا صحراء الظمأ، أنا لست عطيلا، أنا أكذوبة لماذا لا تحكمون بشنقي فتقتلون الأكذوبة؟».[2] ليتم بعدها مقاضاته وإصدار حكم في حقه بالسجن مدة سبعة سنوات.

بعد مرور فترة تواجد **مصطفى سعيد** في السجن وخروجه منه، قرر أن يستعيد ذاتيته وأن يكون من نفسه إنسانا حقيقيا يجعله يتخطى كل ما عاشه في (لندن)؛ وكان هذا القرار يتمثل في العودة إلى وطنه العربي (السودان) الذي كان يجسد **الحقيقة** بالنسبة له، فقرر هذه المرة الاستقرار في بلدة صغيرة بسيطة بساطة أناسها يعيش فيها حياة طبيعية خالية من كل تلك المفارقات التي كان يعاني منها في الغرب (لندن)؛ فاستقر في أحد القرى المطلة على نهر النيل، وكون أسرة تتشكل من زوجة عربية اسمها **حسنة بنت محمود** ورزقا بولدين، فلم يكن يحس أنه غريب عن أهل هذه البلدة على الرغم من أنه وافد جديد عليهم، «فمصطفى سعيد ليس من أهل البلدة، لكنه غريب جاء منذ خمسة أعوام، اشترى مزرعة وبنى بيتا وتزوج

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص58.

[2]- المصدر نفسه، ص54.

بنت محمود رجلا في حاله لا يعلمون عنه الكثير».[1] فاستطاع أن يعيش حياة سعيدة اعتبرها هو حقيقته التي لا يجب إنكارها خلال تلك الفترة التي قضاها في تلك البلدة.

وبعد عودته إلى (السودان) قرر **مصطفى سعيد** التحفظ على سر حياته التي قضاها في الغرب (لندن)، فجعله سجين جدران إحدى الغرف المتواجدة في بيته التي كانت بمثابة المستودع الذي يحتفظ بداخله على كل الذكريات التي عاشها في الماضي؛ فيصفها «بالغرفة المستطيلة من الطوب الأحمر، ساكنة لا كالمقبرة، ولكن كسفينة ألقت مراسيها في عرض البحر».[2]

استطاع **الطيب صالح** أن يستحضر في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" ثنائية **العرب** الذي مثل الحقيقة، **والغرب** الذي كان بمثابة وهم من خلال شخصيات الرواية، وانطلاقا من الأحداث والمواقف التي دارت بينهم خاصة شخصيتي البطل الراوي وشخصية **مصطفى سعيد** الذي عاد من الغرب موطن الأوهام إلى البلد العربي موطن الحقيقة «فالحل الذي يراه الطيب صالح في روايته أمام بطله المضطرب المعذب، هو أن يعود إلى أصله ومنبعه ليبدأ من جديد هناك، فهذه هي البداية الصحيحة والسليمة لن يجد نفسه في لندن مهما أخذ من علمها وثقافتها...لن يجد الطمأنينة أبدا إلا إذا عاد إلى النبع، وألقى وراء ظهره بقشور الثقافة الغربية».[3] والسبب الرئيسي الذي جعل من المجتمع العربي يعترف بذاته ويكتشف حقيقتها ويلتف حولها هو: «التحدي الذي فرضه الغرب على كل مستويات الوجود الاجتماعي السياسي

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص30.

[2]- المصدر نفسه، ص95.

[3]- هاشم ميرغني، الطيب صالح وإشكالية الخطاب النقدي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، ص28، س2012.

الاقتصادي، والنفسي».[1] فالإنسان العربي يسعى دائما وراء البحث عن حقيقته المغيبة لاكتشافها وتداركها من جديد والتمسك بها وإثبات وجوده من خلالها.

3_ ثنائية الرجولة والأنوثة:

من بين الثنائيات الضدية التي برزت بشكل واضح وكثيف في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" **للطيب صالح**، نجد ثنائية **الرجولة والأنوثة** التي اعتبرت ركنا أساسيا اعتمد عليه السارد في بناء متنه الروائي؛ كما اعتبرت أيضا هذه الثنائية الضدية بمثابة العمود الفقري الذي يؤطر علاقة الشرق بالغرب، ومثلت ثنائية **الرجولة والأنوثة** في الرواية ركيزتين متضادتين تتصادمان فيما بينهما يسعى كل منهما لإبراز قوته وذاتيته على حساب الآخر، متخذا غي سبيل ذلك كل اطرق، والأساليب المختلفة لتحقيق الهدف الذي يصبو إليه؛ دون مراعاة ما يترتب من تابعات كنتيجة ذلك الصراع، فالروائي **الطيب صالح** يحصر لنا العلاقة الحضارية بين الشرق والغرب في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال ليقدم لنا الشرق في صورة الرجل (الرجولة)، ويجعل من الغرب أنثى(الأنوثة)، وكأن هذه الثنائية تنبني على العلاقة الجنسية التي تجمع بين الذكر والأنثى؛ وأن الكذب هو السبيل الوحيد الذي يؤطر هذه العلاقة.

ففي هذه الرواية نجد بأن **الطيب صالح** قد حصر لنا الجنس كمشهد انتقامي يشفي به البطل غليله وكرهه الشديد لهذا الآخر؛ ليتخذ من الجنس سبيلا للثأر ورد الاعتبار للذات ليصبح «الجنس هو عامل هدم للوجود وإفناء، بدلا من أن يكون عامل بناء وبقاء، بل إن الجنس هنا هو معادل للموت».[2] ومن خلال هذا القول يتبين لنا أن تلك العلاقة الطبيعية التي تجمع بين الذكر والأنثى بمفهومها الوجودي الذي يضمن الإعمار والبناء من أجل المحافظة على النسل، لم تبق على حقيقتها التي وجدت من أجلها بل تحولت هذه العلاقة بين

---

[1]- هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص163.

[2]- عبد القادر بومسى، ثنائية الرجولة والأنوثة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، ص9.

الرجل والأنثى إلى مصير مجهول قد يؤدي إلى الموت، وأصبحت علاقة تمتاز بالاضطراب والعنف.

مثل **الطيب صالح** في "روايته موسم الهجرة إلى الشمال" ثنائية الذكورة عن طريق شخصية البطل **مصطفى سعيد** الذي تقمص دولا الثائر لبلاده جراء مخلفات الاستعمار الغربي (الإنجليزي) على ووطنه (السودان) حيث كان «يثأر بطريقته الخاصة للعشرين ألفا من السودانيين الذين سقطوا برشاشات كتشنز؛ وكان يثأر أيضا بطريقته الخاصة، مدرسة حضارة الاستعمار، مدرسة التدجين والمثاقفة».[1] فأخذ **مصطفى سعيد** طريقة خاصة (الجنس) كسبيل أساسي لتحقيق هذا الانتقام من الغرب، ورد الاعتبار للحضارة والثقافة الشرقية لتصبح هي مركز القوة، في حين وضع الحضارة الغربية (الأنوثة) في مركز الضعف؛ فتحول **مصطفى سعيد** إلى رمز يمثل رجولة الشرق متغلبا على أنوثة الغرب حاملا حقد ما ألحقه هذا الاستعمار الغربي على الشرق العربي وعلى وجه التحديد بلده (السودان).

وبما أن الجنس كان سبيله الوحيد في مواجهة هذا العنف الأوربي الذي مارسه الإنجليز في بلاده (السودان) فإنه يقول في أحد المقاطع من الرواية «جئتكم غازيا في عقر داركم».[2] أي أن البطل هنا جاءهم غازيا لكن ليس بتلك الطريقة التقليدية التي تعتمد على العتاد والأسلحة، بل هو يقصد غزو الغرب الذي يكمن في أنوثته، وهذا هو المشروع الانتقامي الذي يشفي غليله ويمكنه من الثأر ولو بالقليل للشرق العربي. **فمصطفى سعيد** كان مستعد لفعل أي شيء من أجل إدخال امرأة أو صيد كما يسميها هو إلى غرفته فيقول: «أقرأ الشعر وأتحدث في الدين والفلسفة، وأنقد الرسم، وأقول كلام عن روحانيات الشرق. أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي ثم أسير إلى صيد آخر، لم يكن في نفسي قطرة من المرح».[3] وهذا ما يبين

---

[1]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص154.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص100.

[3]- المصدر نفسه، ص52.

أن **مصطفى سعيد** كان هدفه الأول والأخير الانتقام لا غير فكان في كل مرة ينتصر على الغرب داخل غرفته التي اعتبرها موقعا تجري فيه كل معاركه مع النساء الغربيات موهما إياهن بشتى أنواع الأكاذيب والتلفيقات بغية لفت انتباههن وجذبهن إليه؛ كما اهتم كثيرا بتزيين تلك الغرفة وجعلها نموذجا مثاليا يثير زائريه، فهي عبارة عن فسيفساء يجمع فيها البطل بين الثقافتين العربية والغربية ليصفها قائلا: «غرفة نومي تطل على حديقة. ستائرها وردية منتقاة بعناية وسجادها سندسي دافئ. والسرير رحب مخداته من ريش النعام، وأضواء كهربائية صغيرة، حمراء، وزرقاء وبنفسجية، موضوعة في زوايا معينة، وعلى الجدران مرايا كبيرة، حتى إذا ضاجعت امرأة يبدو كأنني أضاجع حريما كاملا في آن واحد. تعبق في الغرفة رائحة الصندل المحروق والند، وفي الحمام عطور شرقية نفاذة».[1]

كانت **لمصطفى سعيد** عدة تجارب مع نساء غربيات ينتهي بهن الأمر في آخر المطاف بالموت إما انتحارا أو قتلا، كالعلاقة التي جمعته بشخصية **آن همند**، الفتاة التي لم تبلغ العشرين من عمرها بعد، حيث التقت **بمصطفى سعيد** في إحدى الجامعات الإنجليزية أين كان يلقي هذا الأخير **(مصطفى سعيد)** محاضرات عن الشعر العربي، **وآن همند** كانت تدرس اللغات الشرقية؛ ما جعلها ترى في **مصطفى سعيد** رمزا حضاريا يمثل البلاد الشرقية التي كانت دائما تحن إليها، فيقول عنها: «كانت تحن إلى مناخات استوائية وشموس قاسية وآفاق أرجوانية كنت في عينيها رمزا لكل هذا الحنين».[2] ما جعلها لقمة سهلة يستدرجها البطل ويقيم معها علاقة داخل بيته الذي وصفه قائلا: «وكر الأكاذيب الفادحة بنيتها عن عمد أكذوبة أكذوبة».[3]

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص52.

[2]- المصدر نفسه، ص52.

[3]- المصدر نفسه، ص137.

أ) مصطفى سعيد وآن همند:

قلب **الطيب صالح** في روايته "موسم الهجرة على الشمال" من خلال الثنائية الضدية **رجولة وأنوثة** الموازين في طبيعة العلاقة بين الشرق والغرب، فبعد أن كان الغرب يمثل رمز القوة والسيادة، والعرب رمز الهوان والاستعباد؛ نجده هنا يعكس الأدوار عن طريق شخصية **مصطفى سعيد** الذي تحول إلى سيد تخضع له النساء الغربيات، مجسدا **ذكورة** الشرق التي تستعبد **أنوثة** الغرب ما يوضحه قول **مصطفى سعيد** عن **آن همند** التي كانت تلقب بسوسن «ركعت وقبلت قدمي وقالت: أنت مصطفى سعيد مولاي وسيدي وأنا سوسن جاريتك. هكذا كل واحد منا اختار دوره بصمت، هي تمثل دور الجارية وأنا أمثل دور السيد».[1] فكان هذا السيد المنتقم **(مصطفى سعيد)** يجد لذة كبيرة في إذلال النساء الغربيات (ضحاياه) ويحط من قيمتهن، متخذا منهن سلاحا يتغلب فيه على الغرب في عقر داره مبرزا فيها فحولة الشرق العربي؛ فانتهت قصة الفتاة المرحة المحبة للاستطلاع **(آن همند)** بوضع حد لحياتها التي كانت مليئة بالحب، حيث «وجدوها في شقتها في هامستند ميتة انتحارا بالغاز ورسالة تقول فيها: "مستر سعيد" لعنة الله عليك».[2] فهي أقدمت على هذا الأمر بعد أن أيقنت في آخر المطاف أن كل ما كان يقوله **مصطفى سعيد** هو مجرد وهم وأكاذيب وحيل كان يقوم بها من أجل استدراجها لتحقيق مبتغاه فيقول: «تسقيني لذات الأكاذيب العذابة وأنسج لها خيوطا دقيقة مريعة من الأوهام».[3]

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص137.

[2]- المصدر نفسه، ص137.

[3]- المصدر نفسه، ص136.

ب) مصطفى سعيد وإيزابيلا سيمور:

بما أن دور **مصطفى سعيد** في هذه الرواية هو دور المنتقم الحضاري من الغرب فقد تفنن في نسج خططه وحيله بإحكام شديد قصد الإيقاع بأكبر عدد ممكن من النساء الغربيات في شباكه؛ حيث كان ينسج أكاذيبه كنسيج العنكبوت، ويختار من الألفاظ ما هو معسول ومنمق قصد جذب فرائسه، فبعد **آن همند** انتقل **مصطفى سعيد** إلى صيد آخر مع ضحية أخرى يفرض فيها رجولته العربية؛ وكانت هذه الضحية **إيزابيلا سيمور** التي تعرف عليها في ركن الخطباء ودار حوار بينهما حول أصول **مصطفى سعيد** كما يظهر في هذا المقطع «سألتني نحن نشرب الشاي عن بلدي فرويت لها حكايات ملفقة عن صحاري ذهبية الرمال وأدغال تتصايح فيها حيوانات لا وجود لها. قلت لها أن شوارع عاصمة بلادي تعج بالأفيال والأسود وتزحف عليها التماسيح عند القيلولة وكانت تستمع إلي بين مصدقة ومكذبة».[1]

كما روى لها كاذبا قصة فقدانه لوالديه اللذان ماتا غرقا في نهر النيل، ذلك النهر الذي كانت **إيزابيلا** مولعة به من قبل ما ساعده هذه المرة بالضفر بتلك الضحية فيقول: «الطائر يا مستر سعيد قد وقع في الشرك. النيل ذلك الإله الأفعى قد فاز بضحية جديدة. المدينة قد تحولت إلى امرأة. ما هو إلا يوم أو أسبوع حتى أضرب خيمتي. وأغرس وتدي في قمة الجبل».[2] **فمصطفى سعيد** هنا أصبح بمثابة إله آمر في نظر ضحيته الجديدة التي أعمى بصيرتها بأكاذيبه الزائفة عن صورة الشرق، فتقول **إيزابيلا سيمور**: «أنت إلاهي ولا إله غيرك احرقني في نار معبدك أيها الغول الإفريقي».[3] فهي جعلت من **مصطفى سعيد** إله تعبده ويتحكم فيها، فمرة أخرى تعلو مكانة **مصطفى سعيد** ما جعله يشعر بانتصار رجولة الشرق على أنوثة الغرب، لأنه كان ينظر إلى الغرب ومدنه على أنه انثى؛ وكلما أقام علاقة مع امرأة

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص57.

[2]- المصدر نفسه، ص59.

[3]- المصدر نفسه، ص122.

من تلك المدن الغربية يتراءى له بأنه قد غزى تلك المدينة ونال منها «فالمدن عنده تتحول إلى نساء خاضعة له تتلذذ بسلطته عليها».[1]

فإيزابيلا سيمور كانت مختلفة، امرأة متزوجة من رجل نبيل ولديها أطفال؛ لكن **مصطفى سعيد** وجد طريقة لينسيها بتلك الحياة ويدخلها إلى عالمه المتخيل، فكانت **إيزابيلا** سعيدة بتعرفها عليه لكن هذه السعادة لم تلبث طويلا حتى انقلبت عليها، وأقدمت على الانتحار تاركة **لمصطفى سعيد** رسالة تقول فيها: «إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف إلى بطش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول قلبها ولو كان في ذلك إخلال العرف وجرح لكبرياء زوج، ليسامحني الله ويمنحك من السعادة مثل ما منحتني».[2]

ج) مصطفى سعيد وشيلا غرينود:

إضافة إلى **آن همند وإيزابيلا سيمور** تقابلنا **شيلا غرينود**، تلك الفتاة البسيطة التي كانت تعمل في أحد المطاعم في النهار وفي الليل تفرغ لمواصلة دراستها؛ تعرفت على مصطفى سعيد وأخذ يغمرها بمختلف الهدايا ويغريها بكلامه الجميل فيقول عنها: «أغريتها بالهدايا والكلام المعسول، والنظرة التي ترى الشيء فلا تخطئه. جذبها عالمي الجديد عليها. دوختها رائحة الصندل المحروق والند».[3] فهذا الجو الجديد جعل من **شيلا غرينود** تتعلق **بمصطفى سعيد** أكثر وتنجذب إليه، لأنه كان يوحي إلى المناخات الاستوائية وكانت ترى فيه العالم الشرقي، لتجد نفسها مرتمية فوق أحضانه قائلة: «ما أروع لونك الأسود لون السحر والغموض، والأعمال الفاضحة».[4] ما جعلها تقع في فخ الانتقام الذي رسمه **مصطفى سعيد**، وعن طريق غوايته لها داخل تلك الغرفة التي كانت مسرحا لغرائزه الجنسية التي يمارسها بعنف

---

[1]- عبد القادر شريف بومسى، ثنائية رجولة وأنوثة، ص11.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص133.

[3]- المصدر نفسه، ص55.

[4]- المصدر نفسه، ص132.

على النساء الغربيات، عنف ما مارسه الغرب على الشعوب العربية فيقول عن **إيزابيلا سيمور** التي استدرجها لتلك الغرفة: «دخلت غرفة نومي بتولا بكرا وخرجت منها تحمل جرثومة المرض في دمها».[1] فكل من دخل تلك الغرفة يخرج منها مهزوما يحمل خسارة الغرب على أيدي هذا البطل الحاقد، ثم انتحرت بصمت دون أن تترك وراءها أية رسالة أو إشارة؛ عكس ما فعلته كل من **آن همند وإيزابيلا سيمور**.

د) مصطفى سعيد وجين مورس:

كان **مصطفى سعيد** صيادا ماهرا يحسن اقتناص النساء الغربيات حين كان يفرض فحولته الذكورية عليهن، «فآن همند وشيلا غرينود وإيزابيلا سيمور أتحن لمصطفى سعيد أن يعكس الأدوار وأن يتبخر، وهو الطريدة، في أهاب الصياد»؛[2] لكن بعد تعرفه على **جين مورس** انقلبت عليه الأوضاع حيث لم تكن صيدا سهل المنال كغيرها من النساء التي وقعن في فخه من أول لقاء؛ فظل يطاردها أثر من ثلاثة أعوام دون أن يكل أو يمل إلى غاية أن ضجرت منه وتعبت من مطاردته لها قائلة له في أحد الأيام: «أنت ثور متوحش لا يفتر من الطراد، إنني تعبت من مطاردتك لي ومن جربي أمامك. تزوجني». [3] لكن رغم هذا الزواج إلا أنه لم يستطع أن يفرض سلطته الذكورية التي كانت مشروع انتقام من الغرب الذي صوره كأنثى «فالمدينة لم تتحول إلى امرأة. ولندن ليست مدينة مفتوحة، وجين مورس لها أسنان لبؤة وأظافرها كالمخالب». [4] أي أنه لم يتمكن من فتح هذه المدينة (جين مورس)، التي أعادته إلى طبيعته الأولى التي كان قد عكسها من قبل فيقول: «ولكن لم تكن لي حيلة. كنت صيادا

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص55.

[2]- جورج طرابيشي، ثنائية الشرق والغرب رجولة وأنوثة، ص162.

[3]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، 146.

[4]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص162.

فأصبحت فريسة. وكنت أتعذب وبطريقة لم أفهمها كنت أستعذب عذابي».[1] فهي حاولت طمس هويته العربية والقضاء على معالم الحضارة الشرقية «حين أخذت الزهرية وهمشتها على الأرض وأخذت تدوس الشظايا بقدميها...أخذت المخطوط القديم النادر ومزقته...أخذت المصلاة ورمتها في نار المدفأة وأخذت تنظر متلذذة إلى النار تلتهمها».[2] فما قامت به **جين مورس** في ذلك اليوم وفي تلم اللحظة ما هو إلا دليل على «أن الحضارة الغربية لا تسلم نفسها لطالبها الآتي من الشرق أو من الجنوب، إلا إذا خلعته من تاريخه وقطعته عن ماضيه وجردته من تراثه وفصمه عن شخصيته الحضارية».[3]

ففي فترة زواج **مصطفى سعيد بجين مورس** أذاقته من الذّل والهوان ما لم يذقه من قبل، الأمر الذي جعل من ذلك الحقد الدفين والرغبة في الانتقام أن يلتهب أكثر في كيانه؛ ولم يكن هناك من سبيل لإخماد هذا اللهيب سوى بالقضاء عليها والتخلص منها، لأنها كانت تستفزه بأقوالها وأفعالها حتى سلمت له نفسها في أحد الأيام فاغتنم الفرصة وقتلها وأراح نفسه من ذلك العذاب.

ومن خلال ما ذكرناه سابقا يتبين لنا أن الطيب صالح في ثنائية الرجولة والأنوثة، حاول أن يختصر لنا فكرة الانتقام الحضاري من الغرب عن طريق العلاقات التي أقامها مصطفى سعيد (رمز قوة الذكورة العربية) مع النساء الغربيات (رمز ضعف الأنوثة الغربية)؛ فيستدرك البطل **مصطفى سعيد** التفوق الحضاري للغرب، بالتفوق الجنسي الذي يمثل قوة الشرق فنجده يقابل قوة الحضارة بقوة الفحولة بين العالمين.

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص147.

[2]- المصدر نفسه، ص145.

[3]- جورج طرابيشي، ثنائية شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص164.

4-ثنائية العلم والجهل:

تفنن **الطيب صالح** في استحضار الثنايات الضدية داخل روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" واستطاع أن يمزج وينسج خيوطا رفيعة تربط فيما بينها، فكل واحدة منها مكملة لما قبلها ومتممة لما بعدها؛ وثنائية **العلم والجهل** واحدة من بينها حيث تحدث الروائي عن الجانب العلمي الذي وصلت إليه الحضارة الغربية (لندن)، ونسبة الجهل المسيطرة على الحضارة العربية (السودان) فكان العلم فيها محدودا ما جعل كل من **مصطفى سعيد** وشخصية الراوي من الانتقال إلى الغرب (الحضارة الأوربية) لغرض طلب العلم وتحصيل القدر الأكبر من المعارف، وكان كل منهما يمثل جيلا مختلفا عن الآخر، **فمصطفى سعيد** مثل الجيل الأول من المثقفين العرب في فترة الاستعمار، أما الراوي فهو يمثل الجيل الثاني من المثقفين العرب بعد الاستعمار.

كانت (السودان) في فترة ما قبل الاستعمار تتخبط في موجة جهل كبيرة على كافة الأصعدة ولا وجود لأثر المدارس في ذلك الوقت، لكن بعد الدخول الإنجليزي قدموا وأحضروا معهم العلم والمدارس، لكن هذا الأمر لم يرحب به من طرف السودانيين فيقول **مصطفى سعيد** «كان ذلك الوقت أول عهدنا بالمدارس. أذكر الآن أن الناس كانوا غير راغبين فيها...كانت الحكومة تبعث أعوانها يجوبون البلد والأحياء، فيخفي الناس أبناءهم. كانوا يظنونها شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال».[1] حيث كانت ثقافة التعلم منعدمة وغير مرحب بها خلال تلك الفترة خاصة وأنها تصادفت بالغزو حيث «أفضى هذا الوضع إلى منع الإبداع الداخلي».[2] إلا أن هناك قلة قليلة من هذا المجتمع يسمح لأبنائه بمزاولة الدراسة، ومن بينهم نجد **مصطفى سعيد** الذي كان له الحظ بنيل فرصة التعلم والالتحاق بهذه المدارس؛ وأخذ ينهل من علومها بشكل ذكي وسريع فيقول في هذا الصدد: «المهم أنني انصرفت بكل طاقتي لتلك الحياة الجديدة

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص44.

[2]- هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، ص133.

وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم».[1] إلا أن درجة التعلم في تلك الفترة كانت محدودة لا تتعدى المرحلة الوسطى، وهو الدافع الأول الذي قاده إلى التنقل (للقاهرة) ثم إلى (أوربا) موطن الحضارة الغربية، ومنبع العلوم حين وجهه ناظر المدرسة لترك البلد والسعي وراء العلم خارج الوطن كما يظهر في هذا القول: «هذه البلد لا تتسع لذهنك».[2] وهي عبارة صريحة تؤكد محدودية المستوى العلمي في (السودان) ومثل بذلك مصطفى سعيد «أول سوداني يرسل في بعثة إلى الخارج».[3]

أما بالنسبة للحضارة الغربية فبحكم التطور العلمي الكبير الذي وصلت إليه، استطاعت أن تكون لنفسها سلطة الريادة، ما يجعلها قطبا يستهوي الشعوب الأخرى خاصة المُسْتَعْمَرَة منهم «فالمغلوب مولع بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده».[4] وكان السبيل الوحيد للوصول إلى غايتهم التي تتمثل في النهل من علوم الغرب المختلفة هو ضرورة تعلم اللغة الإنجليزية التي هي «مفتاح المستقبل».[5] وبما أن **مصطفى سعيد** نشأ في بيئة يسودها الجهل من جهة؛ وبطش الاستعمار من جهة أخرى يجد نفسه يتصارع بين عائقين يصعب إيجاد حل لهما منذ الوهلة الأولى، ليقرر أن يحارب ذلك الاستعمار بسلاحه لأنه كان «خريج مدرسة الاستعمار...أدخلوه إليهم ليعلموه كيف يقول نعم بلغتهم فاغتنم الفرصة وتعلم أيضا أن يقول لا».[6]

بما أننا تحدثنا عن **مصطفى سعيد** الذي يمثل الجيل الأول من المثقفين العرب، ننتقل الآن إلى شخصية الراوي الذي مثل الجيل الثاني من المثقفين العرب، وهو جيل ما بعد

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، 45.

[2]- المصدر نفسه، ص46.

[3]- المصدر نفسه، ص68.

[4]- أبو الحسن الندوى، الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف، ص6.

[5]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص59.

[6]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص147.

الاستعمار؛ فهذا الجيل لم يعايش تلك الأجواء التي كانت سائدة في مرحلة الاستعمار، ولم يجد تلك الصعوبات التي كانت تواجه الجيل الأول في بداية المشوار العلمي، حيث كانت كل الظروف مواتية أمام هذا الجيل الجديد للاستفادة من مختلف العلوم والظفر بالمناصب العليا

أظهر لنا **الطيب صالح** من خلال هذه الثنائية الضدية حالة الشعوب العربية وبلده (السودان) على وجه الخصوص، في مرحلة الاستعمار البريطاني له ومرحلة ما بعد الاستعمار فرصد لنا الروائي مواطن التداخل بين كل من العلم والجهل (الغرب والشرق) في تلك الحقب مبينا لنا فيها مبدأ التأثير والتأثر بين الشمال والجنوب وكيف استفادت الحضارة الشرقية من نظيرتها الغربية في جانبها العلمي والحضاري.

5-ثنائية الماضي والحاضر:

يستمر **الطيب صالح** في رصد الثنائيات الضدية داخل روايته "موسم الهجرة إلى الشمال"؛ فنجده يؤطر لنا من خلال ثنائية **الماضي والحاضر** الأحداث العامة التي عاشها بطل الرواية **مصطفى سعيد** في بلدين مختلفين حضاريا وهما (السودان) و(إنجلترا)؛ فعندما كان في (إنجلترا) شكلت (السودان) الماضي بالنسبة له، وبعد عودته إلى وطنه الأم (السودان) انعكست الأدوار ليصبح بذلك السودان يمثل حاضره في حين تتحول إنجلترا إلى ماضيه.

بينما كان **مصطفى سعيد** يعيش في السودان (الحاضر) حياة مستقرة، مكونا من نفسه شخصا جديدا محاولا نسيان كل ماضيه الذي عاشه ، حيث اهتم بزوجته **حسنة بنت محمود** وولديه الوحيدين، التقى بشخصية الراوي وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث ما جعل **مصطفى سعيد** يسرد له تجربته التي عاشها في إنجلترا (الماضي)؛ وكان أول شيء قد تكلم به عن قصة ماضيه «أنها قصة طويلة لكنني لن أقول لك كل شيء، وبعض التفاصيل لن تهمك كثيرا».[1] فحدثه عن صباه وعن كيفية انتقاله إلى إنجلترا وأهم الأحداث التي مرت على حياته

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص43.

خلال فترة تواجده فيها، وما لبث حتى بدأت تتوالى عليه في مخيلته تلك الذكريات الماضية حلوها ومرها بداية من فترة وصوله إلى (لندن) إلى غايته عودته، فيتذكر تلك العلاقات الحميمية التي جمعته بالإناث الغربيات وتجربته الذكورية التي فرضها عليهن، كقصة أول لقاء جمعه مع زوجته **جين مورس** فيقول: «كنت في الخامسة والعشرين حين لقيتها في حفل تشيلسي».[1] وكيف ظّل يطاردها لفترة طويلة أتعبته كثيرا إلى غاية تمكنه من التواصل معها والزواج بها وكان هذا الزواج بداية المأساة بالنسبة له لأنه كان يعيش في صراع دائم معها حيث شبه نفسه بشخصية **شهريار وجين مورس بشهرزاد** فيقول: «كأنني شهريار رقيق تشتريه في السوق بدينار. صادف شهرزاد متسولة في أنقاض مدينة قتلها الطاعون، كنت أعيش مع نظريات كينز بالنهار. وبالليل أواصل الحرب بالقوس والسيف والرمح والنشاب». [2] **فمصطفى سعيد** لم يعرف طعم الاستقرار والسكينة بعد زواجه منها فكان في النهار يعيش حياة عادية كمحاضر في جامعة أكسفورد، وما إن يحول الليل حتى يواصل حربه الدائمة مع زوجته «ففي النهار كان يرد بعقله يحاضر يلقي الدروس في أكسفورد يستنطق الإحصائيات، يجردها من طباعها الحيادي المزعوم، يتردد على محافل اليسار الإنجليزي، ولكنه في الليل كان يضنوا عنه قشرته ليعود محاربا بلون الليل». [3]

انتهت قصة (ماضي) **مصطفى سعيد** مع النساء الغربيات ليجد نفسه يتحاكم قضائيا على التهم التي نسبت إليه، وهي التسبب في انتحار كل من **إيزابيلا سيمور، شيلا غرينود وآن همند** وقتل زوجته **جين مورس** فيقول: «في قاعة المحكمة الكبرى في لندن جلست أسابيع أستمع إلى المحامين، يتحدثون عني، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره». [4] وفي

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص50.

[2]- المصدر نفسه، ص55.

[3]- جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة، ص156.

[4]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص53.

الأخير يتم الحكم عليه بقضاء مدة سبعة سنوات في السجن، لتكون هذه الأحداث أهم ما طرأ على ماضي **مصطفى سعيد** في إنجلترا وكان السجن آخر محطة في ماضيه بالغرب.

بما أننا تحدثنا عن حاضر **مصطفى** في (السودان) وماضيه في (إنجلترا)، ننتقل الآن للحديث عن الفترة التي مثلت حاضر **مصطفى سعيد** وهو في(إنجلترا) في حين شكل وطنه (السودان) في ذاكرته الماضي الذي عاشه قبل هجرته للشمال؛ حيث مثل لنا **الطيب صالح** حاضر **مصطفى سعيد** في (إنجلترا) بعد وصوله إلى (لندن) واحتكاكه المباشر مع هذه الحضارة الجديدة والغريبة عنه في أهم المحطات التي توقف عندها **مصطفى سعيد** في حياته؛ بداية من دراسته وتحصيله العلمي مرورا بتلك العلاقات الغرامية التي جمعته مع نساء هذا البلد، وصولا إلى آخر محطة يقضيها في هذا الحاضر (الإنجليز) وهي السجن. ليقرر بعد ذلك العودة إلى وطنه والاستقرار فيه كما يوضحه هذا القول: «هنا أيضا صحراء مخضرة مزرقة ممتدة تناديني تناديني وقادني النداء الغريب إلى ساحل دوفر، وإلى لندن، وإلى المأساة، لقد سلكت ذلك الطريق بعد ذلك عائدا، وكنت أسأل نفسي طوال الرحلة، هل كان من الممكن تلافي شيء مما وقع؟».[1]

كان **مصطفى سعيد** يزوره من حين إلى آخر طيف الماضي الذي قضاه في (السودان) خاصة تلك المواقف التي قضاها مع أمه خلال طفولته وتذكر فيها مرحلة التحاقه بالمدرسة أول مرة.

يتبين لنا من خلال هذه الثنائية الضدية (الحاضر والماضي) أن **الطيب صالح** استطاع أن يأخذنا في رحلة بين زمنين متباينين؛ أحدهما يمثل الحاضر والآخر يمثل الماضي في رقعتين جغرافيا مختلفتين (إنجلترا، السودان)؛ والمتمعن في هذه الرواية يجد نفسه يتأرجح في تتبع حياة **مصطفى سعيد** عن طريق شخصية الراوي الفضولية، وهذا ما يكشف لنا عن مقدرة

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص49.

السارد الفذة في التحكم في حركة السرد وتفعليه بين أحداث الحاضر والماضي لشخصية **مصطفى سعيد**، وتبيان ازدواجية حياة البطل وتفاعله بين حاضره وماضيه.

6-ثنائية المركز والهامش:

برزت ثنائية **المركز والهامش** في الرواية كثنائية ضدية لعالمين مختلفين يجسد أحدهما الشرق والأخر الغرب، حيث يتبادلان مراكز القوة والضعف في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" **للطيب صالح** الذي حصر لنا هذا التقابل الحضاري بين عالم الشمال (إنجلترا) وعالم الجنوب (السودان)؛ فالأول يمتاز بالتحول والحركة والتجديد، في حين أن الثاني يسيطر عليه الثبات والاستقرار والركود، ما يظهر لنا عدم التكافؤ بين العالمين **فالمركز** دائما ما نجده «حكر على الإنسان الأبيض والمتحضر الذي منحته ثقافته استعدادًا لسيادة باقي الشعوب، فعليه أن يساعدها على بلوغ طور الحضارة، أي أن يساعدها التنكر لثقافتها الخاصة لتتبني ثقافة المهيمنين»؛[1] وهو الشيء الذي قامت به إنجلترا (المركز) للسودان (الهامش) خلال فترة الاستعمار، حيث أنها حملت على عاتقها فكرة زرع مبادئ الحضارة لدى هذا الشعب السوداني المهمش والثابت عل كافة الأصعدة، حيث كان الرجال الإنجليز يفرضون سيطرتهم بالقوة على هذا الشعب الأعزل كما يوضحه هذا المقطع من الرواية: «كان مفتش المركز الإنجليزي إله يتصرف في رقعة أكبر من الجزر البريطانية كلها، يسكن في قصر طويل عريض مملوء بالخدم ومحاط بالجند وكانوا يتصرفون كالآلهة، يسخروننا نحن الموظفين الصغار أولاد البلد الجلب العوائد ويتذمر الناس منا ويشكون إلى المفتش الإنجليزي، وكان المفتش الإنجليزي طبعا هو الذي يغفر ويرحم. هكذا غرسوا في قلوب الناس بغضنا نحن أبناء البلد، وحبهم هم المستعمرين الدخلاء». [2] وهذا ما جعل من الشعب السوداني يتجرع مرارة الاستعمار الإنجليزي الغاشم لفترة زمنية طويل؛ ظّل فيها الإنجليز مسيطرين على شؤون البلاد والعباد، في حين

---

[1]- الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، ص451.

[2]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص69.

ظّل الشعب السوداني ممتثلا لأوامرهم ومطبقا لها دون رفض؛ فقد جعل منهم الإنجليز (المركز) خدما تابعين لهم ولمصالهم الشخصية فيقول الراوي عنهم: «الرجل الأبيض، لمجرد أنه حكمنا في حقبة من تاريخنا سيظل أمدا طويلا يحس نحونا بإحساس الاحتقار الذي يحسه القوي تجاه الضعيف»؛ [1] وهذا القول يجسد لنا الثنائية الضدية لنظرة المركز (الغرب) للهامش (الشرق).

مثلت قوة **المركز** (الإنجليز) في هذه الرواية تلك السيطرة التي فرضتها على **الهامش** (السودان)، حين أحظرت معها بعض وسائل التمدن والتحضر كبناء المدارس والخوض في المشاريع الاقتصادية والصناعية، وهي كلها إنجازات حضارية يتستر وراءها الاستعمار بحجة قدومه لنشر الحضارة والعلم، وتنشيط حركة الاقتصاد والبناء والتشييد في هذا الوطن المعزول والمهمش اقتصاديا وحضاريا وعلميا، بغية استنزاف واستغلال ثروات هذا الوطن (السودان) وجعلها تابعة له وخادمة لاقتصاده، وبهذا كانت القيم الحضارية التي كان الإنجليز يبررون قدومهم من أجل نشرها؛ ما هي إلا قناع يخفي صورتهم الحقيقية التي جاؤوا من أجلها ألا وهي الاستعمار ونهب ثروات هذا الشعب المهمش (السودان) الذي ما لبث كثيرا حتى أدرك حقيقة هذا الوجود الإنجليزي (الاستعمار)؛ فيقول منصور (أحد أصحاب الراوي) وهو يتحدث مع ريتشارد الإنجليزي في هذا السياق: «لقد نقلتم إلينا مرض اقتصادكم الرأسمالي، ماذا أعطيتمونا غير حفنة من الشركات الاستعمارية نزفت دماءنا وما تزال؟».[2]

وفي مشهد آخر من الرواية نجد أن **الطيب صالح** مثل لنا الهامش عن طريق شخصية البطل **مصطفى سعيد**، الذي لم يمثل نفسه فقط داخل الرواية بل مثل المجتمع العربي (السوداني) والإفريقي، والمجتمع الشرقي المسلم بصفة عامة أي الشعب الذي ينتمي إلى دول العالم الثالث المستعمرة والمنتهك حقوقها من قبل مستعمريها، فهو يتبنى فكرة صدام الهامش

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص73.

[2]- المصدر نفسه، ص73.

العرب (السودان) مع المركز الغرب (إنجلترا) خاصة في ذلك لجانب المتعلق بحضارتهم وثقافتهم وكشف نظرتهم الاستعمارية والاستعلائية في حق الشعوب المهمشة.

كما نجد أيضا بأن (السودان) مثل في هذه الرواية **الهامش** الثابت وسط عالم متحول ومتجدد، فبرغم من احتكاكه بالحضارة الإنجليزية، إلا أنه لم يستفد منها ولم يستطع التخلي عن تلك المركزية التاريخية التي تتحكم فيها العادات والتقاليد الموروثة خاصة الخرافية منها حيث كانوا يرفضون كل ما يخرج ويتنافى عن تعاليم هذه القيم الرجعية وظلوا متمسكين بها (فالسودان) «هذا البلد الذي تتحكم فيه الخرافات»؛ [1] بقي على حاله دون أي تطور أو تحول

تظهر لنا ثنائية **المركز والهامش** في الرواية المفارقات الضدية التي تجمع بين الشرق والغرب من خلال فكرة الثابت (السودان) والمتحول (إنجلترا) عن طريق كشف الهوة بين العالمين؛ عالم القوة وعالم الضعف فتتكشف العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر. **فالطيب صالح** أراد أن يقدم لنا لمحة عامة حول الصدام الحضاري الذي يمثله كل من **المركز والهامش** من خلال هذه الثنائية الضدية.

بعد دراستنا لأهم الثنائيات الضدية البارزة في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني **الطيب صالح**، اتضحت لدينا أكثر طبيعة العلاقة التي تجمع بين طرفي هذه الثنائية الضدية؛ حيث أن كل جزء منها يبحث عن الجزء الآخر المكمل له ليجتمعا معا فتتضح بذلك الفكرة في الذهن أكثر؛ كما أن هناك من يرى أن هذه الثنائيات الضدية «تقوم على صراع أبدي بعضها مع بعض ويرون أن هذا الصراع مصدر الخلق، والتوليد، لاستمرار الحياة». [2]

فمثلا ثنائية **الشمال والجنوب** التي تحدثنا عنها في البداية نجدها ترصد قطبين جغرافيين أحدهما يجسد العالم الشمالي وهو الغرب والآخر يمثل العالم الجنوبي وهو الشرق، فهما عالمان

---

[1]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، ص73.

[2]- سمر الديوب، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته، ص9.

مختلفان تماما تجمعهما علاقة ضدية وهي علاقة المستعمِر بالمستعمَر؛ كما تجسدت هذه العلاقة الضدية في ثنائية **العرب والغرب** التي تمثل في جوهرها فكرة **الحقيقة** التي يعيشها العرب في وطنهم، وفكرة **الوهم** التي تطارد المغتربين خارج وطنهم.

وإذا عدنا إلى ثنائية **الذكورة والأنوثة** نجد بأن الروائي **الطيب صالح** قد عكس طبيعة العلاقة التي تجمع بين الشرق والغرب في هذه الرواية، حيث جعل من العرب رمزا للذكورة في حين حصر الغرب كرمز للأنوثة، فهو يريد من خلال هذه الثنائية الضدية أن يبرز قوة تفوق الفحولة العربية كمقابل لقوة الحضارة الغربية، ولم يجد إلا فحولته كسبيل للتصدي لهذا الغرب أما بالنسبة لثنائية **العلم والجهل** فنجدها تكشف لنا نسبة التفاوت الحضاري والعلمي المتباين بين كل من الشمال (إنجلترا) والجنوب (السودان)؛ ولعل من بين الثنائيات الضدية الأخرى التي برزت في الرواية بشكل واضح ثنائية **الماضي والحاضر** التي استطاع الروائي من خلالها أن يضعها في دوامة بين **الحاضر والماضي** بطريقة سلسة ومتداخلة بين الزمنين حيث أن القارئ يجد نفسه تارة يجول في الحاضر، وتارة أخرى يرتمي في أحضان الماضي.

لنختتم هذه الثنائيات الضدية بثنائية **المركز والهامش** التي رصدت لنا علاقة التأثير والتأثر بين كل من العالم الشمالي والعالم الجنوبي أي في علاقة الثابت والمتحول، فالحضارة الغربية دائما ما نجدها في تطور وتجدد دائم، في حين تعرف الحضارة الشرقية بركودها وثباتها الدائم؛ كما أن هذه الثنائية الضدية تبرز لنا نقاط القوة والضعف بين كل من عالم الشمال والجنوب.

لتصل بنا النتيجة في الأخير إلى أن كل هذه الثنائيات الضدية تصب في منحى واحد ألا وهو الكشف عن الصدام الحضاري الأزلي الذي جمع بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية؛ **فالطيب صالح** من خلال روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" استطاع أن يؤطر لنا هذا

الصدام الحضاري انطلاقا من الثنائيات الضدية المتنوعة والتي كشفت لنا عن هذا الاحتكاك الذي جمع بين الشمال والجنوب.

خاتمة

من خلال دراستنا لإشكالية الثنائيات الضدية في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني **الطيب صالح** حاولنا فيها الإلمام بأهم الثنائيات الضدّية الواردة في الرواية والتي أراد الروائي من خلالها أن يقدم لنا ملخص عن طبيعة العلاقة التي جمعت بين الأنا والآخر بواسطة هذه الثنائيات التي كانت بمثابة أرضية ارتكز عليها **الطيب صالح** في متنه الروائي، حيث ساهم في تأطير الصراع الحضاري الذي كان بين الشرق والغرب (الأنا والآخر) مبرزا نقاط التفاوت بين الغرب المتقدم في كل المجالات والشرق المتخلف على جميع المستويات خاصة على المستوى العلمي والحضاري، لنصل في الأخير إلى جملة من النتائج وهي كالتالي:

أظهر لنا **الطيب صالح** في روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" كيف تجاوز القالب الروائي المتعارف عليه فيما يخص الجانب الحضاري للرواية العربية، حيث قدمها لنا بشكل جديد مخالف تماما لما عرفت عليه الكتابات الروائية الحضارية من قبل؛ فعدت هذه الرواية من بين أهم الروايات العربية التي أخذت علاقة الأنا العربي بالآخر الغربي ضمن موضوع الصراع الحضاري بين الشرق والغرب.

كما تطرح لنا هذه الرواية إيديولوجيتين تتصارعان فيما بينهما محددتين مراكز القوة والضعف بين كل من الشمال والجنوب، من خلال ثنائية الذكورة والأنوثة، ما جعل من الطيب صالح يعتمد على تجنيس العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب فيجعل من الشرق رجلا قويا، ومن الغرب أنثى ضعيفة؛ فالجنس في هذه الرواية يختلف تماما لما هو عليه في الأعمال الروائية الأخرى، لأنه يصبح في موسم الهجرة إلى الشمال عبارة عن عامل انتقام وموت بدل أن يكون عامل التكاثر والحياة، أي أن الجنس مقابل للموت.

تعمد **الطيب صالح** في هذه الرواية أن يبث لنا العديد من الثنائيات الضدية التي تحمل في طياتها فكرة تحديد علاقة الصراع الحضاري بين العرب والغرب؛ فنجده يستخدم المواقع الجغرافية مثل الشمال والجنوب كبديل للشرق والغرب (الأنا والآخر) ليعبر عن طبيعة الصدام العنيف بين هذين العالمين.

من جهة أخرى عكس **الطيب صالح** طبيعة الأدوار في علاقة المستعمِر بالمستعمَر من خلال شخصية **مصطفى سعيد** الذي انتقل إلى الغرب بصورة الغازي المنتقم لأهله ووطنه لكن هذا الانتقام الجنسي الذي قام به البطل **مصطفى سعيد**، ما هو إلا انتقام وهمي تجسد في لاشعور البطل، لأنه لم يؤثر على الثقافة الغربية ولم يلحق بها أي ضرر؛ حيث ظلت مشاعر الحقد والكراهية مسيطرة على شخصية البطل مصطفى سعيد في علاقته بالآخر الغربي من بداية الرواية إلى نهايتها بالرغم من رحلته العلمية التي قضاها في الغرب.

أراد **الطيب صالح** أن يظهر لنا من خلال هذه الثنائيات الضدية في روايته، حقيقة الغرب الذي لا يقدم أي خدمة للعرب إلا بعد طمس هويته واستنزاف كل مقوماته الحضارية وجعله تابعا وخادما لمصالحه.

كما جسد الجنس في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للروائي الطيب صالح عاملا مهما في توطيد علاقة الصراع بين الشمال والجنوب أي بين رجولة العرب وأنوثة الغرب.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة البحث التي رصدنا فيها أهم النتائج التي ذكرناها آنفا، ونرجو أن نكون قد وفقنا ولو بالقليل بإضافة شيء جديد من خلال هذا البحث الذي قد يستفاد منه في بحوث أخرى مستقبلا؛ فإذا أصبنا فمن الله وإذا أخطأنا فمن الشيطان.

ملحق

ولد الطيب صالح في 12 يوليو 1929 في إقليم مروي شمالي (السودان) بقرية كركمول، وهو من أشهر الأدباء العرب حيث أطلق عليه النقاد لقب "عبقري الرواية العربية"؛ اسمه الكامل **الطيب محمد صالح أحمد**، عاش وترعرع في قريته ثم انتقل إلى الخرطوم لإكمال دراسته وحصل على درجة البكالوريوس في العلوم؛ سافر بعدها إلى (إنجلترا) حيث واصل دراسته في جامعة (لندن) وغير تخصصه إلى دراسة الشؤون الدولية السياسية.

إشتغل **الطيب صالح** في عدة مواقع مهنية مختلفة، حيث عمل لسنوات طويلة في القسم العربي لهيئة الإذاعة البريطانية، ليترقى إلى مدير قسم الدراما، ثم يعود بعدها إلى (السودان) ويعمل في إذاعتها، هاجر بعدها إلى دولة (قطر) واشتغل في وزارة إعلامها؛ ليتحول بعد ذلك للعمل كمدير إقليمي لمنظمة اليونسكو في (باريس)؛ لتكسبه هذه التجارب خبرة واسعة لأحوال الحياة والعالم خاصة أحوال أمته وقضاياها وهو ما وظفه في كتاباته وأعماله الروائية خاصة روايته العالمية "موسم الهجرة إلى الشمال"؛ التي اعتبرت واحدة من بين أفضل الروايات في العالم وحصلت على العديد من الجوائز، ونشرت لأول مرة في أواخر الستينات من القرن العشرين (ببيروت)، وفي عام 2001 تم الاعتراف بكتابه من قبل الأكاديمية في (دمشق) على أنه صاحب الرواية العربية الأفضل في القرن العشرين.

مؤلفاته:

أصدر **الطيب صالح** ثلاثة روايات ومجموعة من القصص القصيرة؛ من أهمها:

- موسم الهجرة إلى الشمال، عرس الزين، ضوء البيت.
- مريود
- نخلة على الجدول.
- منسي.
- المضيؤون كالنجوم.

- للمدن تفرد وحديث الشرق.
- للمدن تفرد وحديث الغرب.
- وطني السودان.
- خواطر الترحال.

مضمون رواية موسم الهجرة إلى الشمال:

يفتتح **الطيب صالح** روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" بمقدمة يسردها الراوي بعد عودته إلى أرض الوطن قادما من (أوربا)، يتحدث فيها عن تجربته العلمية التي دامت لمدة سبعة سنوات توجت بحصوله على شهادة الدكتوراه في الشعر الإنجليزي، حيث غمرته سعادة كبيرة وهو بين أهله؛ وبينما كانوا يرحبون به ويسألونه عن الحياة في تلك البلاد، لمح بينهم وجها غريبا **(مصطفى سعيد)** فانتابه فضول كبير حوله وراح يسأل أهل القرية عنه لكن لم يتوصل إلى أية معلومة كون أن هذه الشخصية غامضة يجهلون حقيقتها؛ إلى أن يسعفه الحظ في أحد الأيام ويسمعه يتلو الشعر باللغة الإنجليزية وهو في حالة سكر، الأمر الذي جعل من الراوي يتتبع حقيقة **مصطفى سعيد** ويلاحقه إلى أن أحس هذا الأخير (مصطفى سعيد) بشغف اهتمامه الكبير له؛ فدعاه إلى بيته ليخبره عن سر قصة حياته؛ بعد أن طلب من الراوي كتمان هذا السر وعدم إفشاءه لغيره، فأظهر له شهادة ميلاده وجواز سفره الذي كانت فيه عدة أختام من دول أوربية.

انطلق البطل بعدها لسرد ذكريات قصة حياته للراوي، أنه عاش يتيم الأب وتربى في حضن أمه التي اعتبرها شخصا غريبا عنه فكان يشعر بنوع من الحرية؛ كما حدثه عن قصة التحاقه بالمدرسة الإنجليزية التي اعتبرها أهل (السودان) شرا عظيما جاءهم مع جيوش الاحتلال؛ فكان **مصطفى سعيد** من أنجب طلاب صفه في تلك الفترة، وشعر بنوع من الاختلاف عنهم حيث لا يفرح إذا أثنى عليه المدرس ولا يتألم لما يتألم له الباقون؛ وبفضل

قدراته العلمية والذهنية الواسعة أشير عليه أن يسافر خارج البلد لاستكمال مشروعه الدراسي. فأخذ بهذه النصيحة وانتقل إلى (القاهرة) أين استقبله **مستر روبنسن** وزوجته، وعاملاه معاملة الأبوين لابنهما، حيث احتضنته **مسز روبنسن** بذراعيها ما جعله يحس برغبة جنسية أثارته لأول مرة في حياته. ثم راح يتذكر رحلة تجوله مع **مستر روبنسن** وزوجته في أنحاء (القاهرة) والتعرف على أهم معالمها الأثرية، لتنتهي رحلة دراسته في (القاهرة) وقرر بعد ذلك الالتحاق بأحد الجامعات في (لندن).

وبعد أن حط رحاله في (لندن) واصطدم بهذه الحضارة الجديدة عليه، أخذ يقارن بين الوطن الذي جاء منه وهذا البلد الجديد الوافد إليه، ثم بدأ **مصطفى سعيد** يحكي للراوي عن علاقاته الحميمية التي جمعته بالنساء الغربيات؛ كتذكره لقصة لقاءه **بجين مورس** في أحد الحفلات المقامة في (إنجلترا) للمرة الأولى، ثم عن لقاءه الثاني بها حين حطت من قيمته، ما جعله يتوعدها بالانتقام بسبب سخريتها منه؛ ثم يمضي ليحكي له عن قصته التي جمعته مع فتاة إنجليزية أخرى **(آن همند)** التي التقاها صدفة في جامعة أكسفورد، وكانت ذكية جدا ومحبة للاستطلاع؛ فوجدت فيه رائحة الشرق (الجنوب) الذي كانت تتوق دوما للتعرف عليه، فأقام معها بعد ذلك علاقة غرامية، لتنتهي هذه القصة بانتحارها تاركة رسالة مكتوب عليها: "مستر سعيد لعنة الله عليك". وبعد هذه العبارة تذكر **مصطفى سعيد** قصة محاكمته نتيجة للتهم التي نسبت إليه وهي التسبب في انتحار **آن همند، شيلا غرينود، وإيزابيلا سيمور** وقتل زوجته **جين مورس**؛ فكان وكيل دفاعه عن هذه التهم أستاذه برفسور **ماكسول فستركين**، الذي حاول جاهدا أن يخلصه من حبل المشنقة، فسعى لتحسين صورة متهمه أمام القاضي محصيا مناقبه ومكانته العلمية، مبرزا عبقريته الفذة فيخبره كيف أصبح **مصطفى سعيد** محاضرا للاقتصاد في جامعة (لندن) وهو في الرابعة والعشرين من عمره. ثم يعود **مصطفى سعيد** بذاكرته إلى قصة مطاردته **لجين مورس** التي أنهكتها مطاردته لها، فتطلب منه في الأخير أن يتزوجها

لتزداد بذلك علاقة التوتر بينهما بعد هذا الزواج بسبب تمنعها عنه دائما؛ ليتذكر فجأة انتحار **شيلا غرينود** التي كان يغريها بالهدايا والكلام المعسول.

ينهي **مصطفى سعيد** ذكريات قصصه الغرامية مع النساء الغربيات بالعلاقة التي جمعته **بإيزابيلا سيمور**، تلك المرأة المتزوجة التي كانت تبحث عن السعادة خارج محيط عائلتها، لتجدها عند **مصطفى سعيد** الذي كان يبث في روحها السعادة والطمأنينة بأكاذيبه الإغوائية عن الحياة في الشرق (الجنوب). لتنتهي في آخر المطاف هذه العلاقة بانتحار **إيزابيلا سيمور** كغيرها من النساء اللواتي تعرفن على **مصطفى سعيد**.

ليفسح **الطيب صالح** فيما بعد المجال للروائي ليسرد علينا بقية قصة حياة **مصطفى سعيد** مباشرة بعد وفاته غرقا في فيضان نهر النيل، بعد خروج أهل القرية للبحث عنه، لكن بحثهم باء بالفشل فلم يجدوا له أثرا، بعد هذه الحادثة تذكر الراوي تلك الليلة التي جمعته **بمصطفى سعيد** ومشاهدته منظر القرية في الليل الساكن، ليستمر على ذلك الحال حتى يجد نفسه أمام بيت جده الذي كان يقيم صلاة الفجر فلفت انتباهه، وشتت أفكاره المتعلقة **بمصطفى سعيد** فراح يقارن بين نفسه وشخصية **مصطفى سعيد** من خلال تجربتهما في المجتمع الإنجليزي وموقف كل منهما من هذا الأخير (المجتمع الإنجليزي).

وبعد غياب **مصطفى سعيد** بعامين تسلم الراوي منصب عمل في مصلحة المعارف (بالخرطوم)، إلا أن صورة **مصطفى سعيد** لم تفارق خياله، وفي أحد رحلاته بالقطار التقى الراوي بموظف متقاعد، ووصل بهما الحديث إلى أيام دراسته فحدثه عن **مصطفى سعيد** الذي كان زميلا له وعلى أنه أنبغ تلميذ في الفصل حيث عرف بابن الإنجليز المدلل؛ ومرة أخرى التقى الراوي بأحد الشبان المحاضرين في الجامعة فأخذا يتجاذبان أطراف الحديث إلى أن وصلا في حديثهما عن **مصطفى سعيد** فقال الشاب معلومات مغلوطة عنه، ما جعل من الراوي يصحح له معلوماته الخاطئة عن **مصطفى سعيد** بدون وعي منه.

والشيء الذي زاد من تعلق الراوي **بمصطفى سعيد** هو تلك الوصية التي تركها بعد موته مؤمنا له زوجته وولديه وكل أملاكه ومنحه مفتاح غرفته السرية؛ حيث كان الراوي صائنا للأمانة فحرس على رعاية زوجة **مصطفى سعيد** وأبناءه امتثالا لتلك الوصية. فزوجة **مصطفى سعيد** قطعت وعدا لنفسها بعدم الزواج بعده، فحين توجه **ود الريس** الذي تجاوز السبعين من عمره للزواج منها رفضته بسبب ذلك الوعد. ليتزوجها بعد ذلك عنوة بعد قبول أهلها لهذا الزواج، لتقرر **حسنة بنت محمود** (الزوجة) قتل **ود الريس** وقتل نفسها، فانتاب الراوي بعد هذه الحادثة ألم شديد لفقدانها.

بعد هذه الحادثة دخل الراوي لغرفة **مصطفى سعيد** السرية التي وجد فيها ذكريات متعلقة بماضيه في الغرب خاصة فيما تعلق بالنساء الغربيات وعلاقته معهن، متمعنا في الصور القديمة والرسائل المتعددة التي كان يحتفظ بها **مصطفى سعيد** في تلك الغرفة حيث كان كل شيء فيها مرتبا إلا صورة **جين مورس** زوجته الإنجليزية العنيدة التي كانت لها بصمة خاصة على حياته على غرار النساء الأخريات؛ حيث قاس معها الكثير من المحن والإذلال إلى أن يصل به الحال ليقرر قتلها في تلك الليلة التي سلمت له نفسها فغرز الخنجر في صدرها ليشفي غليله منها بصفة نهائية.

وفي آخر الرواية يصف لنا **الطيب صالح** مشهد الراوي وهو يسبح في الشاطئ بين الشمال والجنوب، ليقرر في الأخير العودة للحياة بين أهله وناسه الذين هم في حاجة إليه بأن يكون دائما بينهم وقريبا منهم لتنتهي هذه الرواية على صيحة الراوي "النجدة النجدة".

قائمة المصادر

والمراجع

المصادر والمراجع:

1-ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، مج4.

2-أبو الحسن الندوى، الحضارة الغربية الوافدة وأثرها في الجيل المثقف، دار الصحوة، القاهرة، ط1، س1985.

3-أحلام مستغانمي، عابر سرير، منشورات أحلام مستغانمي، بيروت-لبنان، ط2، س2013.

4-أحمد محمد عطية، الرواية السياسية دراسة نقدية في الرواية السياسية العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة.

5-إلياس خوري، زمن الاحتلال، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1، س1985.

6-بهاء طاهر، واحة الغروب، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط11، س2013.

7-تركي الحمد، ريح الجنة، دار الساقي، بيروت-لبنان، ط4.

8-توفيق الحكيم، عصفور من الشرق، مكتبة مصر، مصر.

9-جورج طرابيشي، شرق وغرب رجولة وأنوثة دراسة في أزمة الجنس والحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط1، س1977.

10- حسن حنفى، مقدمة في علم الإستغراب، الدار الفنية، القاهرة، س1991.

11- حنا مينه، عاهرة ونصف مجنون، دار الآداب، بيروت.

12- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، س2003، ج4.

13- الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1 س2003.

14- رفاعة الطهطاوي، تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

15- سمر الديوب، الثنائيات الضدية بحث في المصطلح ودلالته، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية العتبة العباسية المقدسة، سوريا، ط1، س2017.

16- سيقموند فرويد، الأنا والهو، تر محمد عثمان نجاتي، دار الشروق، بيروت، ط4، س1982.

17- صنع الله إبراهيم، نجمة أغسطس، دار الفرابي، بيروت، ط3، س1980.

18- الطاهر لبيب، صورة الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، س1999.

19- طه حسين، الأيام، مركز الأهرام للترجمة، والنشر، القاهرة، ط1، س1992.

20- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، س1979.

21- عباس يوسف الحداد، الأنا في الشعر الصوفي، ابن فارض انموذجا، دار الحوار، سوريا، ط2، س2009.

22- عبد الرحمان منيف، شرق المتوسط، المكتبة العالمية، بغداد، د.ط، د.س.

23- علي باشا مبارك، علم الدين، جريدة المحروسة، الإسكندرية، س1882، ج1.

24- علي بن إبراهيم النملة، الشرق والغرب، منطلقات العلاقة ومحدداتها، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، ط3، س2010.

25- غادة السمان، الجسد حقيبة سفر، منشورات غادة السمان، بيروت-لبنان.

26- غسان كنفاني، أم السعد، منشورات الرمال، قبرص، س2013.

27- غسان كنفاني، عائد إلى حيفا، منشورات الرمال، قبرص، ط2013، س2015.

28- فدوى طوقان، الرحلة الأصعب، دار الشروق، عمان-الأردن، ط1، س1993.

29- الفيروز أبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، ج4، س1980.

30- لويس معلوف، المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط19.

31- ماجدة حمود، خطاب الآخر في التراث العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر ط1، س2010.

32- ماجدة حمود، علاقة النقد بالإبداع الأدبي، وزارة الثقافة، دمشق، س1997.

33- محمد أمين، الشرق والغرب، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

34- محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، تح علي هيلالي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، ج34، س2001.

35- ميجان الرويلي وسعد البازغي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي لعربي، الدار البيضاء-المغرب، ط3، س2002.

36- هشام شرابي، المثقفون العرب والغرب، دار النهار، بيروت، ط2، س1981.

37- واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، دار الآداب، بيروت، ط2، س2008.

38- يوسف زيدان، محال، دار الشروق، القاهرة-مصر، ط1، س2012.

المجلات:

1-أحمد مداس، المعرفة واستئثار الأنا بإنتاج الآخر، مجلة المخبر (أبحاث في اللغة والأدب الجزائري)، ع9.

2- جمال مباركي، المحمول الثقافي الغربي في الرواية العربية المعاصرة، مجلة قراءات، جامعة بسكرة الجزائر، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، ع5، س2013.

3-عبد القادر شريف بموسى، ثنائية الرجولة والأنوثة في رواية مسم الهجرة إلى الشمال، للطيب صالح، مجلة جيل للدراسات الأدبية والفكرية، مركز جيل للأبحاث العلمية، الجزائر، ع17، س2016.

4- ليلى قاسمي، فاطمة كاظم زادة، صورة الذات والآخر صورة الذات والآخر في رواية سوشون مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، ع19، س2014،

5-نادية هناوي سعدون، سردية الآخر في تجسيد استلاب الذات قراءة نقدية في رواية تجذيف في الوحل مجلة دراسات اللغة العربية وآدابها قضية محكمة، ع12، س2013.

6- هاشم ميرغني، الطيب صالح وإشكالية الخطاب النقدي، مجلة العلوم الإنسانية جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، س2012.

الأطروحات:

1- عماد بالوافي، جدلية الشرق والغرب في رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، مذكرة لنيل شهادة الماستر، جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي-الجزائر، س2014/2013.

مواقع الأنترنت:

1- جميل حمداوي، الرحلة الأصعب لفدوى طوقان سيرة الأدب والمقاومة والصمود، ديوان العرب، س2007، www.diwanalarab.com.

2- جميل حمداوي، الرواية السياسية والتخييل السياسي، مجلة دنيا الوطن، س2007، www.pulpit.alwatanvoice.com.

3- جميل حمداوي، صورة جدلية الأنا والآخر في الخطاب الروائي العربي، صحيفة المثقف، ع1440، س2010، www.almothaqaf.com.

4- صحيفة الاتحاد، الملحق الثقافي، أم السعد خزان الثورة، س2012، www.alittihad.ae.

5- محمد عبد الجابر، مفهوم الأنا والاخر، www.aldjabiabed.net/maj11-moiautre.htm.

الفهرس

الموضوعات **الصفحة**

مقدمة.....أ/ب

مدخل.....3

مفهوم الأنا 4

مفهوم الآخر.....6

الفصل الأول: تعدد رؤى الأنا للآخر في الرواية العربية.....19

رؤية انبهار الأنا العربي بالآخر الغربي.....21

أ–رفاعة الطهطاوي (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) 21

ب–علي مبارك (رواية علم الدين) 25

رؤية الأنا الحضارية تجاه الآخر.....27

أ–طه حسين (رواية الأيام) 28

ب–توفيق الحكيم (عصفور من الشرق) 30

الرؤية السياسية بين العرب والغرب.....35

أ–عبد الرحمان منيف (رواية شرق المتوسط) 36

ب–صنع الله إبراهيم (رواية نجمة أغسطس) 39

الرؤية العدوانية تجاه الآخر.....44

أ-الصراع الحضاري بين الأنا العربية والآخر الإسرائيلي (الرحلة الأصعب لفدوى طوقان) 45

ب-موقف الأنا العدائي تجاه الآخر الصهيوني (غسان كنفاني) 49

***الفصل الثاني: صراع الأنا والآخر في رواية موسم الهجرة إلى الشمال*.....56**

ثنائية الشمال والجنوب.....59

أ-إنجلترا المادية.....59

ب-السودان الروحي.....63

ثنائية العرب (الحقيقة) الغرب (الوهم).....68

ثنائية الرجولة والأنوثة.....74

أ-مصطفى سعيد وآن همند 77

ب-مصطفى سعيد وإيزابيلا سيمور 78

ج-مصطفى سعيد وشيلا غرينود 79

د-مصطفى سعيد وجين مورس 80

ثنائية العلم والجهل.....82

ثنائية الماضي والحاضر.....84

ثنائية المركز والهامش.....87

خاتمة.....92

الملحق.....95

قائمة المصادر والمراجع.....102

فهرس الموضوعات.....106

ملخص:

يتضمن موضوع الثنائيات المتضادة في رواية موسم الهجرة إلى الشمال للروائي الطيب صالح علاقة الأنا (السودان) بالآخر (إنجلترا) انطلاقا من عدة ثنائيات متباينة تبرز طبيعة هذه العلاقة المتضادة بين الشرق والغرب، كثنائية الشمال والجنوب التي مثلت كل من إنجلترا والسودان بالإضافة إلى ثنائية العرب والغرب التي جسدت مفارقة الحقيقة والوهم وثنائية الرجولة والأنوثة التي برزت كأهم ثنائية في هذه الرواية إضافة إلى ثنائية العلم والجهل حيث حصر فيها الطيب صالح الجانب العلمي لكل البلدين، ثم تأتي بعدها ثنائية الماضي والحاضر أين عرفت هذه الرواية تداخل بن الأزمنة، وأخيرا ثنائية المركز والهامش وهي ترصد لنا عالم القوة والضعف وتكشف العلاقة بين المستعمر والمستعمر.

***الكلمات المفتاحية:**

الرواية، الأنا والآخر، الشرق والغرب، الثنائيات، الرجولة والأنوثة، الشمال والجنوب.